عظة الناشئين

كتاب اخلاق و اداب واجتماع

كتبه

الشيخ مصطفى الغلاييني

« قاضي بيروت الشرعي »

« وعضو المجمع العلمي العربي في دمشق »

الطبعة الخامسة

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٦ م

المطبعة الوطنية : بيروت

عظة الناشئين

كتاب أخلاق وأدب واجتماع

كتبه

الشيخ مصطفى الغلاييني

« قاضي بيروت الشرعي »

« وعضو المجمع العلمي العربي في دمشق »

الطبعة الخامسة

١٣٥٤ هـ — ١٩٣٦ م

المطبعة الوطنية : بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ، الرَّحمنِ الرَّحيم ، مالكِ يوم الدِّينِ [1] ، إياكَ نعبدُ وإياكَ نستعينُ ، إهدِنا الصراطَ المستقيم [2] ، صراطَ الذينَ أنعمتَ عليهم ، غيرِ المغضوبِ عليهم ، ولا الضالين .

وبعدُ ، فهذه شذَرَاتٌ [3] كنتُ أنشرها في جريدة المفيد ، تحت عُنوانِ : « عِظة الناشئين » وبإمضاء « أبي فياض » . وقد كان لها في نُفوس القرّاءِ جميلُ الوقعِ ، وعظيمُ التأثير . وكان كثيرٌ منهم يَستحسن إن تُطبعَ هذه العِظاتُ في كتابٍ وتُنشرَ بينَ من لم يكن يطالعُ تلك الجريدةَ . فلما قتلتُ هذا الأمرَ يقيناً [4] ، عَزَمتُ على نشرها بين شبان الأمةِ ، لتكونَ لهم نِبراساً [5] وهُدًى . والله الموفق

الغلاييني

بيروت
سنة ١٣٣١ هـ
سنة ١٩١٣ م

---

(١) يوم الدين : يوم الحساب والجزاء على الاعمال ، وهو يوم القيامة

(٢) الصراط : الطريق — والمستقيم : المعتدل ، ضد المعوج

(٣) الشذرات : جمع شذرة ، وهي اللآلىء الصغار ، وقطع الذهب تُلتقط من معدنه بدون اذابة الحجارة ؛ وتشبه بها المواعظ الجميلة والقطع الحسنة من الكلام

(٤) قتل الأمر يقيناً : علمه علم اليقين ، واليقين : هو ازاحة الشك وتحقيق الأمر

(٥) النبراس : المصباح يستضاء

مقدمة

إخواني النَّاشئين :

هذه عِظاتٌ نافِعة [1] ، ولآلِئُ لامعة ؛ سَتَرَوْنها منظومةَ [2] العِقْدِ في سِلْكِ العِبْرةِ ، منثورةَ [3] الفائدة بقَلَمِ الحِكْمةِ ؛ تُرشِدُ الى المَنْهَجِ القَويم [4] ، بالاسلوبِ الحَكيم [5] ، وتَهْدي من عَمِلَ بها الى صراطٍ مُستقيم .

أنشأتُها ورائدي فيها الإِخلاص [6] ، وصُوايَ صِدْقُ النِّيَّة [7] . وهيَ تَحمِلُ بينَ جَوانحِها [8] موضوعاتٍ شتَّى ، من

(١) العظات : جمع عظة ، وهي : النصح والتذكير بالعواقب

(٢) منظومة : مجموعة مؤلفة

(٣) منثورة : مفرقة

(٤) المنهج : الطريق الواضح

(٥) الاسلوب : الطريق ، والفن من الكلام — والحكيم : ذو الحكمة ، وهي : الكلام الموافق للحق ، ووضع الشيء في موضعه

(٦) الرائد : الدليل . وأصل معناه : الرسول الذي يرسله القوم ليرى لهم مكاناً ينزلون فيه

(٧) الصوى : حجارة تُنصبُ في الطريق ليهتدي بها المارّون . وهي جمع صُوّة ، بضم الصاد وفتح الواو مُشدَّدة ؛ والمراد بها هنا الادلة

(٨) الجوانح : الاضلاع تحت الترائب مما يلي الصدر كالضلوع مما يلي الظهر . والترائب : عظام الصدر ، ومفردها تريبة

الاجتماع والأخلاق ، وتنطوي أضالعها[1] على مضامين[2] متنوعة من الآداب والحكم .

فهي جعبة عبر ، وكنانة عظات[3] ، يدرأ[4] بها الناشئ عن نفسه جيوش الخمول ، وكتائب الضعة[5] ، ويدفع ما ينتابها من عوادي الأمراض الاجتماعية[6] ، وطواري الأسقام الزمنية[7] .

فعضوا عليها ، أيها الناشئون بالنواجذ[8] ، تكن لكم دريئة[9] يوم تكونون شبانا ، وذخرا حين تصيرون شيبا[10] .

وسلام على من سمع عظتي فوعاها[11] ، وعمل بمقتضاها .

---

(١) تنطوي : تشتمل — والاضالع : عظام صغيرة من عظام الجنب ، وهي جمع أضلع ، ومفرد الأضلع ضلع

(٢) المضامين : جمع مضمون ، ومضمون الكلام : فحواه وموضوعه

(٣) الجعبة والكنانة : الوعاء ؛ وأصل معناهما : وعاء السهام والنشاب

(٤) يدرأ : يدفع

(٥) الكتائب : الجيوش ، ومفردها كتيبة - والضعة : الانحطاط والخسة

(٦) ينتابها : يصيبها ويأتيها مرة بعد أخرى — النوادي : النوازل

(٧) الطواري : الحوادث والدواهي

(٨) النواجذ : اقاصي الاضراس ، وهي اربعة ؛ ويقال عض على الأمر بنواجذه وبناجذيه : اذا حرص عليه

(٩) الدريئة : ما يستتر به الصائد ليختل الصيد ويخدعه ، حتى اذا أمكنه الصيد رمى ؛ وهذا الامر دريئة لي ، أي : وقاية وحفظ

(١٠) الذخر : الذخيرة • وجمعه أذخار — والشيب : جمع اشيب ، وهو من ادركه الشيب

(١١) وعاها : حفظها وتدبرها وقبلها

الاقدام [1]

خَلَقَ اللهُ الإنسانَ لِيكون عاملاً لِما يُحْيِيهِ ، ساعياً في مَناكب الأرض [2] ، مُنتفعاً بِخَيْراتها ، دائِباً [3] فِيما يَعودُ عليه وعلى مجموع الأمةِ بالخيرِ الجمّ [4] . ولا يكونُ ذلك إلاَّ بالإقدام وبَذْلِ الجُهْد [5] .

إنّ السَّلَفَ الصّالح لم يَبْلُغ تلكَ العَظَمةَ الهائلة [6] ، ولم يُذَلِّل تلك العَقَبات [7] الصَّعْبةَ المُرْتقى ، ولم يَصِل الى ما يُطأْطِأْ [8] عِنْدَ ذِكْرِهِ كلُّ رأسٍ ؛ إلاَّ بالإقدام وإثارةِ الهِمّة [9] .

وإنَّ الخَلَفَ لم يَتأخّر عن هذه المَرتبة ، ولم يُقَصِّرْ عن

---

(١) الاقدام : مصدر أقدمَ على الامر بمعنى جَرُؤَ عليه

(٢) مناكب الارض : نواحيها وجوانبها وطرقها • ومفردها منكب

(٣) دائباً : جادًّا مستمرًّا

(٤) الجم : الكثير الغزير

(٥) الجهد : المشقة والطاقة

(٦) الهائلة : العظيمة • والهائل من الامور : ما عظم عليك وأفزعك

(٧) يذلل : يخضع ويهوّن — والعقبات : الصعوبات ، ومفردها عقبة ، وأصل معناها : المرتقى الصعب في الجبل ، والطريق في الجبل

(٨) يطأطأ : يخفض وينكس

(٩) اثارة الهمة : تحريكها وتهييجها

تلك الغاية[1] ، إلاّ بعدَ أن تقاعسَ عن العمل النافع[2] ، وأحجَم عن الأخذ بِشَتات الحَزْمِ[3] .

إنّ الأُمَم كُلَّها قد نهضت ، وبلغت من مُختَلِف المُنَى ما بلغت[4] ؛ بعدَ أن كانت هباءً منثوراً[5] ، وطِمراً محقوراً[6] ، وعضواً مبتوراً[7] ؛ ونحنُ لم نزَل في سُبات عميقٍ[8] ، ومكانٍ من التَّقاعُسِ سحيق[9] ؛ وقد كُنَّا السَّابقين الأوَّلين ، والهادِينَ المهْدِيِّين !

فأَحيُوا ، يا رَعاكُم الله ، هذا المجدَ الدَّاثر[10] ، وأَقِيلُوا ذلك الشَّرَفَ العاثِر[11] ، وأنشِرُوا[12] ما كانَ من عِزِّكُم

---

(١) الغاية : المدى ، ونهاية الأمر ، والفائدة المطلوبة . والنسبة اليها غائيّ ؛ وجمعها غايٌ وغايات ، كما تقول : ساحة وساحٌ وساحات

(٢) تقاعس : تأخر ولم يقدم ، والتقاعس : التأخر

(٣) احجم : كف وتأخر — والشتات : المختلف المتفرق

(٤) المنى : جمع مُنية ؛ وهي البغية والمراد ، وما يتمناه الانسان

(٥) الهباء : الغبار ، او شيء يشبه الدخان ينبثّ في ضوء الشمس — منثوراً : متفرقاً

(٦) الطمر : الثوب الخلق البالي ، وجمعه أطمار — والمحقور : المحتقر المرذول

(٧) المبتور : المقطوع

(٨) السبات : النوم ، والراحة ؛ ومنه يوم السبت ، لانه يوم راحة لليهود ينقطعون فيه عن الاعمال

(٩) سحيق : بعيد

(١٠) الداثر : البالي الممحوّ

(١١) اقيلوا الشرف : انهضوا به وارفعوه . يقال عثر فلان فأقلته عثرته ، أي : كبا فرفعته من كبوته

(١٢) انشروا : أحيوا ، والانشار : الاحياء بعد الموت

مَقْبُوراً ، ولا تَجْعَلوهُ شيئاً مَهْجُوراً ؛ فإني أَرَى ، إن لم تَستَيقظوا ، كَفَنَا مَنْشُوراً ، وقَبراً محفوراً ؛ وهنالكَ نَدْعو ثُبُوراً [١] ، فلا نَجِدُ نصيراً ، ولا نُلفِي ظَهِيراً [٢] .

فانهضُوا نهضَةً تَميدُ لها الرَّاسيات [٣] ، وتَسكُنُ عندها الجامحات [٤] ؛ قبلَ أنْ تقرَعنا القارعات [٥] ، وتَصُخَّنا الصَّاخَّات [٦] ، فنَلْتَمِسُ المَمات ، فلا نَجِدُ إلاَّ الوَيْلات [٧] .

إنَّ في يَدِكم أمرَ الأُمَّة ؛ وفي إقدامكم حياتَها . فأقدِموا إقدامَ الأسدِ الباسلِ [٨] ، وانهضُوا نُهوضَ الرَّوايا [٩] تحتَ ذاتِ الصَّلاصِل [١٠] ، تَحْيَ بكمُ الأُمة .

والله لكم مُعين ، وهو يجزي المُقْدِمين .

---

(١) الثبور : الهلاك والخسار والخيبة

(٢) تلفي : نجد — وظهيراً : معيناً

(٣) تميد : تضطرب وتتحرك وتزيغ — والراسيات : الجبال

(٤) الجامحات : الخيول تجمح براكبها حتى تلقيه عن ظهرها

(٥) تقرعنا : تصيبنا وتفاجئنا — والقارعات : المصائب والدواهي

(٦) تصخنا : تضربنا ، او تُصِمُّ آذاننا — والصاخة : صيحة تُصِمُّ الآذان لشدتها ، والداهية ؛ وأصل معنى الصخ : ضرب الحديد على الحديد

(٧) الويلات : الفضائح والبليات ، ومفردها ويلة

(٨) الباسل : الشجاع الكريه اللقاء

(٩) الروايا : الدواب التي تحمل مزادات الماء ؛ ومفردها راوية

(١٠) الصلاصل : الاصوات والرعود ؛ والمراد بذات الصلاصل : المزادات التي تُحمل على الروايا ، لانها تكون من جلد فتصوت عند قيام الدابة بها وعند مشيها . والمراد انهضوا نهوضاً شديداً

الصـــــبر

إنّ الرجلَ العاقلَ من يَصبرُ على الخُطُوب [١] ، ويُقابِلُها رابِطَ الجأش [٢] ، لا من يقابلُها مَشدُوهاً [٣] ، لا يَستَقِرُّ على حالٍ من القَلَق .

والنَّفسُ العاقلة ، فيهـا مَلَكةَ التُّؤَدةِ [٤] والتأني ، فهي تَسعَى هادئةً لِتُزيلَ ما ألمَّ بها من الخَطْب [٥] ، وتَدْفعَ عنها عاديةَ المِحَن [٦] .

أما النَّفسُ الجاهلة ، فهيَ دائمةُ الاضطراب لكلِّ خطبٍ يَنزِلُ ، وإن كان يَسيراً [٧] ؛ لأنَّها تعتقدُ أنْ لا قِبَلَ لها بِتَلَقِّيه [٨] ، ولا طاقةَ لها بِدَفعِهِ ؛ فهيَ لا تَستطيعُ التَّملُّصَ منهُ ، ولا تَقدرُ على التَّفَصّي من عادِيَته [٩] .

(١) الخطوب : الامور ، شديدة كانت او غير شديدة . والمراد بها هنا الامور العظيمة ، ومفردها خطب

(٢) الجأش : النفس . وفلان رابط الجأش ، أي : يربط نفسه عن الفرار ويمنعها لشجاعته ؛ والجمع جؤوش

(٣) شُدِه فلان «بالبناء للمجهول» : دُهش وشُغل وحُير ، فهو مشدوه

(٤) الملكة : الصفة الراسخة في النفس — والتؤدة : الرزانة والتأني

(٥) ألمّ بها : نزل بها

(٦) العادية : النازلة والمصيبة — والمحن : جمع محنة ، وهي ما يمتحن به الانسان من بلية

(٧) يسيراً : قليلاً هيناً

(٨) لا قِبل له بالامر : لا طاقة له به

(٩) التفصي : التخلص والتملص والتفلت

وهذا هوَ الفَرقُ بينَ النَّفْسين .

فَكُنْ ، أيُّها النَّاشئُ ، ذا نَفْسٍ عاقلة صابرة ، وذلكَ بتعويدها اكتسابَ الفضائل ، ونَبْذَ الرَّذائل[١] ، والتحلِّي بالكمالات الإنسانيَّة ، والتَّجمُّلَ بِحلَى الرُّجوليَّة[٢] . وذلكَ يَسيرٌ على من هَداهُ اللهُ النُّزوعَ الى الفضيلة[٣] ، فنزعَ عنه رِداءَ الرَّذيلة ؛ فلَمْ يُعطِ النَّفْسَ الصَّامتةَ هَواها[٤] ، ولم يَسلُبِ النَّفْسَ النَّاطقة مُناها[٥] ؛ فَخَرَجَ بذلك من مَرْتَع الحَيوانيَّة ، الى بِيئَة الإنسانيَّة[٦] .

واللهُ يَجزي الصَّابرينَ على تَهذيبِ النَّفْس ، ويرفَعُهم إلى مقام المُهتَدين ، عن مَنزِل اللَّبس[٧] .

فإلى الصَّبْر على تهذيب نُفوسكم أدعوكُم ؛ فإنَّ عاقبة ذلك نجاحُ الدَّارَين ، وسعادةُ الحياتَين ؛ والفوزُ بالحُسْنَيَين .

---

(١) النبذ : الطرح

(٢) التجمل : التزين — والحلى ، بكسر الحاء : جمع حلية وهي ما يتحلى به الانسان ويتجمل به — والرجولية : صفة الرجال ، ومثلها الرجولة

(٣) نزع الى الامر نُزوعاً : ذهب اليه ومال اليه

(٤) النفس الصامتة : هي النفس الجاهلة الامارة بالسوء

(٥) النفس الناطقة : هي النفس العاقلة المرشدة الى الفضائل

(٦) البيئة : الحالة والمنزل

(٧) اللبس ، بفتح اللام : الحيرة ، والتباس الامور ، واختلاط الظلام

النفاق [1]

لم أرَ بينَ الخلالِ [2] القبيحة ، والصفاتِ الضارة — التي سرَتْ في جسم الأمة سريانَ الكَهْرَباء في الأجسامِ — خلَّةً أقبحَ ، ولا صِفةً أشنعَ ، من داء النفاق .

ذلك الداء الوَبيلُ [3] ، والمرَضُ الفتّاكُ [4] ، أكثرُ ضرراً بالأمة من ألدِّ أعدائها [5] ، الذين يتحيَّنونَ [6] الفُرَصَ للانتقاضِ عليها [7] ، وانتقاصِ بلادِها من أطرافها .

إنَّ العدوَّ المهاجِمَ ، إذا رأَتهُ الأُمةُ تهيَّأَتْ لدَفعِ أذاهُ ، وصدِّ غاراته ، بما هو عَتيدٌ [8] لديها من وسائل الدِّفاع ، وأسبابِ المصادمةِ . فإن لم تتَّقِ [9] شرَّهُ كُلَّهُ ، فإنها تدرأ

(١) النفاق : أن يظهر المرء خلاف ما يبطن
(٢) الخلال : الخصال ، ومفردها خَلَّة ، بفتح الخاء وفتح اللام مشدّدة
(٣) الوبيل : الشديد
(٤) الفتاك : الشديد الفتك . والفتك : البطش أو القتل على حين غفلة
(٥) ألد الاعداء : هو الخصم الذي لا يميل الى الحق
(٦) يتحينون : يترقبون
(٧) انتقض عليه : تغير عليه
(٨) عتيد : مهيأ حاضر
(٩) اتقى الشر : تحفظ منه

عنها[١] ما نستطيع درأه من أواذيِّ عدوانه[٢] .

أمّا المنافق – عدوّ الأمة الرابض[٣] في قلبها – فهي لا تدري كيف تحاربه ، ولا تعرف من هو لتقاومه ؛ فهو يضعف قوّتها المعنوية ، ويخدّر أنباض نهضتها المباركة[٤] ؛ وهي حيرى مما يصيبها ، ولهى[٥] من داء لا تعرف كنهه[٦] ولا مصدره .

فإذا دامت الأمة على ذلك حيناً من الدهر ، من غير أن تبحث بحثاً دقيقاً ، وتفحص فحصاً حكيماً ، لتعرف تلك الجرثومة الموبوءة[٧] ، فتسعى لإبادتها[٨] ؛ وتعلم كنه مرضها ، فتداويه بالدواء الناجع[٩] ، كانت عاقبة أمرها انحلال الروابط ؛ وفساد الأخلاق . وهناك الموت الأكبر ، الذي يمحو الأمة من لوح

---

(١) تدرأ : تدفع

(٢) الاواذيّ : الامواج ، ومفردها آذيّ ؛ والمراد بها المضرات

(٣) الرابض : الجالس المستقر

(٤) يخدر : يضعف — والانباض : جمع نبض ، وهو حركة القلب والعروق

(٥) ولهى : ذاهلة متحيرة فاقدة الشعور مما اصابها

(٦) كنه الشيء : حقيقته

(٧) جرثومة الشيء وجرثومه : أصله ، ويطلقان اليوم على النسمات التي يسمونها المكروب ، والجمع جراثيم — والموبؤة : التي فيها الوباء ، او التي أصابها الوباء

(٨) الابادة : الاهلاك

(٩) الناجع : المفيد

الوجود ، فتكونُ معَ الهالكين .

فأُعيذُكم ، معشرَ النّاشئين ؛ إن تكونوا من المنافقين .

احذروا أن يدبّ في قلوبكم دبيبُ هؤلاء الاشرار[١] ، فتمسّكمُ النّار . وما هي إلاّ نارٌ تحرقُ الأخضرَ واليابس ، فتجعلُ رُبوعَ الأُمةِ دوارس[٢] .

اعملوا ، رعاكم الله ، على تعريف الأُمةِ بهم ؛ وتحذيرها كيدهم[٣] ، تكونوا من القوم الصالحين .

واللهُ معَ السّاعين ، لردّ كيدِ المنافقين ، لتكونَ الأُمةُ في أعلى علّيين[٤] .



(١) يدب : يمشي ويسري . والدبيب هنا : هو بمعنى الافكار الفاسدة التي تسري في الانسان من حيث لا يشعر ، شبهت بالدبيب وهي الهوام : « الحيوانات الصغيرة » التي تسري في الماء وتنسلُ فيه انسلالاً

(٢) الربوع : الديار — ودوارس : ممحوة الآثار

(٣) الكيد : الخداع والمكر

(٤) أعلى عليين : ارفع الدرجات . وعليون : هو اسم لأعلى الجنة ، ويعرب اعراب جمع المذكر السالم : بالواو رفعاً والياء نصباً وجراً ، لانه ملحق به

الإخلاص

العَمَلُ جِسمٌ رُوحُهُ الإِخلاص .

إنَّ الجسم متى فارقته رُوحه — التي بها قِوامُهُ[1] — كان جُثَّةً هامدةً[2] لا حَراكَ فِيها ، ولا فائدةَ تُرْجى منها ؛ فكذلك العملُ إذا زايَلهُ الإخلاص[3] .

كم رأينا قوماً يَعْمَلونَ ! غيرَ أنَّا لم نَرَ أثراً صالحاً لِعملهم . وكثيرٌ منهم لم يُوَفَّق فيما قصدَ اليه ، فظَلَّ في شاطئه ، أو خاضَ منه ضَحْضَاحاً[4] ، ولم يستطع أن يَصِل إلى الغَمْر[5] ، فنكَصَ على عَقِبَيْهِ[6] ، خَسِرَ النَّصَبِ[7] والذَّهب .

وليس لهذا الأمرِ من سَبب ، إلاّ أن الإخلاص لم يَكُنْ رائدَ[8] هذه الفئة ، لأنها لم تَعْمَل إلاّ لجرِّ مَغْنَمٍ مَذموم ، أو كَسْبِ شَرَفٍ مَوْهوم .

---

(١) قوام الامر ، بكسر القاف : نظامه وعماده وملاكه الذي به يقوم

(٢) الجثة : شخص الانسان — وهامدة : ميتة . وأصلها من همود النار وهو انطفاؤها

(٣) زايله : فارقه

(٤) الضحضاح : الماء القريب القعر

(٥) الغمر : الماء الكثير البعيد القعر ، والجمع غِمار ، بكسر الغين

(٦) نكص على عقبيه : رجع

(٧) خسر : شديد الخسران ، وهو صفة مبالغة — والنصب : التعب

(٨) الرائد : الدليل والمرشد

والسِّرُّ في ذلك أنَّ من يَعمَل مُخلصاً في عمله لأمته ووطنه تَهوِي[1] اليه أفئدةُ الناس، ويَحوطُونَه[2] بالتشجيع والتَّحبيذ[3]، أو بالمعونة والتَّنفيذ؛ فيزدادُ بذلك همَّةً ونَشاطاً، وتَنمو[4] فيه رُوحُ الجِدِّ والمُثابرةِ على العمَل.

أما من يعملُ غيرَ مُخلِص، فإنَّهُ، وإن كَتم ما يُضمِرُهُ حيناً من الدهر، لا بُدَّ أن يَنكشِفَ عوارُهُ[5]، ويفتَضِحَ أمرُهُ؛ فينفِرُ منه من كان له مُعيناً، ويُهمِلُهُ من شَجعهُ وحبَّذَ عمَلَهُ. وبذلك تَضعفُ هِمَّتُهُ، وتَفتُرُ عزيمته؛ فيَدَعُ[6] ما كان يَعمَلُه مُضطرّاً، وتكونُ عاقبةُ أمرِهِ خسارةَ المادَّةِ والأدب، ويَعيشُ عيشةً غيرَ راضية.

والأمثال على ذلك كثيرة:

فكَمْ رأينا جمعيّاتٍ قامت، فما لَبِثت[7] أن قعدَت!

---

(١) تهوي اليه: تميل اليه؛ وأصل معناها تسقط

(٢) يحوطونه: يحفظونه ويتعهدونه

(٣) التحبيذ: ان تقول للرجل: «حبذا» ما دحاً عمله

(٤) تنمو: تزيد

(٥) العوار، مثلثه العين: العيب؛ وأصل معناها: الخرق في الثوب

(٦) يدع: يترك

(٧) لبثت: مكثت

وكم شاهدنا مشروعاتٍ نهضت ، فما مكثتْ أن سقطت .

وتعدادُ هذه الحوادثِ يحتاجُ الى صفحات ، لا يتّسعُ لها صدرُ هذه العظات .

فكنْ ، أيّها النّاشئُ ، مخلصاً في عملك ، تبلغْ أقصى أملك [١] ، واحذرْ أن تبيعَ الوجدان ، بالأصفرِ الرّنّان [٢] ، فذلكَ دأبُ المنافقين [٣] ، الذينَ يستبدلونَ الدّنيا بالدّينِ ، والضّلالَ باليقين .

وأعيذُك بالله أن لا تكونَ من المخلصين

---

(١) اقصى : أبعد

(٢) الاصفر الرنان : الذهب

(٣) الدأب : العادة

اليأس

ما استولى اليأسُ على أُمّة إلاّ أخملَها ، ولا خامرَ[1] قلوبَ قوم إلاّ أضعفها .

وناهيكَ[2] بضَعْفِ القلوبِ مُخمِلاً ، فإنهُ أشدُّ ألماً من مرض الاجسام ، وشرٌّ أثراً من وَقْعِ الحُسامِ[3] .

أمّا الخُمولُ — وهوَ أثرٌ من آثارِ اليأسِ — فقدْ يجعلُ المرءَ كالحيوان الاعجم ، لا يَعرِفُ من هذه الحياة إلاّ ما تهتدي إليه البهائمُ بالسَّوْقِ الطَّبيعيِّ : منَ التَّمتُّع بالمطاعم والمَشارب والمَلذّات .

---

(١) اليأس : القنوط وقطع الامل

(٢) خامر : خالط

(٣) ناهيك : كلة تعجب واستعظام ، كما يقال « حسبك » : وتأويلها : أنه غاية فيما تطلبه ينهاك عن طلب غيره . وهي تذكر وتؤنث وتثنى وتجمع لانها اسم فاعل . تقول هذا رجل ناهيك من رجل ، وهذه امرأة ناهيتك من امرأة ، وهؤلاء رجال ناهوك من رجال ، ونساء نواهيك او ناهياتك من نساء ، وهذان رجلان ناهياك ، وهاتان امرأتان ناهيتاك . وان وقعت بعد النكرة كانت صفة لها كالامثلة السابقة . وان وقعت بعد المعرفة كانت حالاً منها ، مثل : هذا عبدالله ناهيكَ من رجل . واعرابها في نحو : « ناهيك بعمر عادلاً » : ان ناهيك : خبر مقدم ، والكاف : مضاف اليه ، وعمر : مبتدأ مؤخر دخلت عليه الباء الجارة الزائدة ، وعادلاً : حالاً

(٤) وقع الحسام : شدة ضربته . والحسام : السيف القاطع

قد قَرَنَ اللهُ اليأسَ بالكُفرِ به ، في قولهِ : « ولا تَيْأَسوا من رَوْحِ (١) اللهِ ، إنَّهُ لا يَيأسُ من رَوْحِ اللهِ إلاَّ القَومُ الـكافرون » ؛ فانظُرْ ما أعظمَ ذَنبَ اليائسين !

وليس هذا الذنبُ رائناً (٢) ، على قلبِ مُرتكبهِ في الحياة الكُبْرَى (٣) فقَطْ ، بل هو يُغَشِّي مُجترَمهُ (٤) في هذه الحياة الصُغرى أيضاً ؛ إذ لو عرَضتْ لهُ أمورٌ يَجِبُ أن يَقُومَ بأعبائها (٥) ، فاستَنبطَ نتائجها (٦) ، أو استكبرَ أنْ تكون ، لرأيتَهُ مُعرِضاً عنها إعراضَ الجبان ، عن مُنازلة الشُّجعان . معَ أنه لو ثابَرَ على القيام بها ، وواظبَ على مُصادمة ما يَعتورهُ (٧) من العوامل في سبيل تحقيقها ، وثَبتَ أمامَ العَقَباتِ (٨) التي دونَها ، فذلَّلها بِجِدٍّ جادٍّ ، وعزمٍ وقَّادٍ ،

---

(١) الروح : الرحمة

(٢) رائناً : مغطياً

(٣) الحياة الكبرى : هي الحياة بعد الحياة الدنيا التي هي الحياة الصغرى

(٤) يغشي : يغطي — ومجترمه : مكتسبه

(٥) الأعباء : الاحمال الثقيلة ، ومفردها عِبء

(٦) استنبطأ الشيء : وجده بطيئاً

(٧) يعتوره : يصيبه وينزل به مرة بعد أخرى

(٨) العقبات : جمع عقبة ، وهي الصعوبة ، وأصلها : الطريق الصعب في الجبال

ونُفُوذِ نَظَرٍ حادٍّ ، لأَنَّهُ مُنقـادةٌ اليه[1] ، ونال من نتائجها ما يَروم .

ولكنْ ، هو اليأسُ ، مُهَدِّمُ الآمال ، ومُقوِّض[2] أركان الأعمال .

لو رَغِبتَ الى كثيرٍ من الناس عندنا — ممن يستطيعونَ القيامَ بعظائم الأعمال ، التي يَعودُ نفعُها على الوطن وأبنائه — أن يَقُوموا بأمرٍ من الامور النافعةِ ، لاَعتذرَ عن ذلك بما لا يُقبَلُ من حُجَّة ، وما لا يُؤْبَهُ له من اعتذار[3] .

ما عذرُ مَنْ حُجَّتُـه اليأسُ من نجاح المشروعات ، وبُرهانُه صُعوبةُ نَجاحِ الأعمال ؟ !

ما ذلك ، لَعَمْرُ الحقِّ ، بِحُجَّة ، وما على قولهم أثارةٌ[4] من برهانٍ صحيح .

ولكنْ هو اليأسُ ؛ قاتلَ اللهُ اليأسَ ، وأقال اليائسين عَثَراتِهم[5] ، وأناف بهم على يَفاعِ الأَمل[6] ، واخذ بأيديهم الى صالح العمَل .

---

(١) منقادة : طائعة

(٢) مقوض : مهدم

(٣) لا يؤبه له : لا يعبأ به ولا يلتفت اليه

(٤) اثارة : قليل ؛ وأصلها البقية من العلم تؤثر

(٥) أقاله عثرته : نهض به منها

(٦) اناف بهم : رفعهم ـ واليفاع : التل المشرف ، أو ما ارتفع من الارض

إنّ اليأس قد تمكّنَ من القلوب إلاّ أقلّها ؛ واُستحكمت[١] حلَقاتُهُ في النُّفوس ، غيرَ نَفسٍ قد تداركها الله بِبَصيصٍ[٢] من نُورِ الآمالِ ، فأدركت مَغَبّةَ المآلِ[٣] ، وسعَتْ الى تحسين الحالِ ، لتَجنيَ ثمراتِ الاُستقبال .

فلا تكونوا ، أيُّها الناشئون ، من اليائسين ، الكُسالى الخاملين .

فما اليأسُ إلاّ موتٌ في الحياة ، وشقاءٌ بعدَ الموت .

فاُذبَحوا اليأس ، وقَوُّوا البأس[٤] ، تكونوا منَ المُفلِحين .



(١) استحكمت : تمكنت

(٢) البصيص : اللمعان والبريق

(٣) المغبة : العاقبة — والمآل : المرجع والمصير

(٤) البأس : القوة والشدة

الرجاء

لولا الرّجاء لَمَا سعى ساعٍ نحوَ أُمنيّة [١] ، ولا دعا داعٍ الى وطنيّة ، ولكانت الحياةُ أضيقَ من جُحْر الضَّبّ [٢] ، وأثقلَ على العاتق من القُيود والأَغلال [٣] .

ما رأيتُ أحداً يعمَلُ ، إلاّ وهو يَعتقِدُ أَنّ لِعَمَلِهِ أثراً تُحمَدُ مَغَبّتُه [٤] ، وتُرجى فائدتُه . ولا فَرقَ بينَ أن تكون الفائدةُ خاصّةً بالعامل ، أو عامّةً شاملة ، يعودُ خيرُها على مجموعِ الأمةِ التي ينتفعُ بخيراتِها ، ويَحيا في بيئتِها [٥] .

غيرَ أنّ هُناكَ أمراً ، هُو كلُّ الأمر :

ذلك ، أنّ قوماً لا يَعمَلون إلاّ إذا اعتقدوا ، جدّ الاعتقاد ، أنّ عملَهم مُثمِرٌ لا محالةَ ؛ فإن لَمَحُوا شُبهةً في نجاح العمل ، ولو كانت أوهى من بيت العَنكَبُوت ، أَحجموا [٦] عن الإقدام ،

(١) الرجاء : الأمل — والأمنية : ما يتمناه الانسان ، وجمعها امانيّ
(٢) جحر الضب : مأواه . والضب : حيوان بري كفرخ التمساح الصغير
(٣) العاتق : موضع حمالة السيف من الكتف ـ والاغلال : القيود ؛ والمفرد غلّ
(٤) المغبة : العاقبة
(٥) البيئة : المنزل والموطن
(٦) احجموا : تأخروا

وأدَّرعوا بالأوهام [1] . وليس ذلك من دأبِ الحازمين [2] ، ولا من خُلقِ العامِلين .

وما الدَّاعي إلى إحجامهم إلاَّ ضعفُ الرجاء في نفوسهم . وهو مرضٌ من أمراض النَّفس ، يجبُ أن يُداوَى بإماتة اليأس ؛ فإنَّه داء الاجتماع ، وجرثومةُ العمرانِ الموبوءةُ [3] .

فقدُ الرَّجاء داءٌ سارٍ في جسمِ مجتمعنا ، لذلك ترى العاملينَ قليلين ، والسُّعداء في حياتهم نادرين ؛ وقد شملتهمُ الحسراتُ ، وحاطتهم من شقاء الحياة النَّكباتُ [4] . ولو عقلوا لطرَحوا بهذا الخُلقِ الشَّائنِ الأرض [5] ، واستمسكوا بعُرَى الرَّجاء [6] ، وأقدموا على العمل إقدامَ الأشداء ، الذين يرَوْنَ أنَّ في اليأس الدَّاء ، وفي الرَّجاء الشِّفاء .

وبعدُ ، فإنَّ هناك قوماً لا يُثبِّطُ [7] هِممَهم بُعدُ الغايةِ التي يقصِدون اليها ، ولا يحولُ بينهم وبينَ ما يرجُون ،

---

(١) ادرع الدرع وادرع بها : لبسها
(٢) الدأب : العادة — والحازم : من يضبط اموره ويأخذ منها بالثقة
(٣) الجرثومة : النسمة التي يسمونها المكروب — والموبوءة : التي فيها الوباء والداء
(٤) النكبات : المصائب
(٥) الشائن : العائب
(٦) العرى : جمع عروة ، وهي كل ما يُوثق به ويعول عليه ؛ وأصلها : مقبض الدلو والكوز ونحوهما ، وما يدخل فيه الزر من القميص وغيره
(٧) لا يثبط : لا يعوّق ولا يؤخر

ما يَعترضُ رجاءَهم ، ويُصادِمُ آمالَهم ؛ بل يَندفعون اندفاعَ القَضاء المُنزَلِ ، ويُقدِمون إقدامَ الأَتيِّ المُرسَلِ [١] ، لا يَلويهم عن أمانيِّهم لاوٍ [٢] ، ولا يَثنيهم ثانٍ ؛ وأولئك هُمُ القومُ حقاً ، وبهم تَحيا الأُمة .

هذه الفئةُ النَّاهضةُ ، تَعلَمُ ، حقَّ العلمِ ، أنَّ رجاءَ الأعمالِ داعيةُ الإقدامِ عليها ، وسببُ تحقيقِ حصُولها ؛ فلا يُقعِدُهم عنها ضَعفُ الأملِ ، ولا ضآلةُ نُوره [٣] .

هي تعتقدُ اعتقاداً لا يَشوبُهُ شكٌّ [٤] ، ولا يُخالِطُهُ رَيبٌ ، أنَّ الحياةَ معَ اليأسِ موتٌ ، وتقولُ معَ القائلِ : « ما أضيقَ العيشَ لولا فُسحةُ الأملِ » .

فاجعلُوا ، أيُّها النَّاشئونَ ، الرجاءَ شعارَكم ، والأملَ دِثارَكم [٥] . واتركوا تَثبيطَ المُثبِّطين ، ولَيَّ اللاَّوين ، وثَنيَ الثَّانين [٦] . وكونوا منَ الرَّاجين الآملين ، السَّاعينَ العاملين . واللهُ لكمْ مُعين .

---

(١) الأتيّ : السيل يأتي من بعيد

(٢) لا يلويهم : لا يثنيهم ولا يصرفهم ، وماضيه لوى ، ومصدره اليّ ، واسم الفاعل اللاوي (٣) ضآلة النور : ضعفه وقلته

(٤) لا يشوبه : لا يخالطه

(٥) الشعار : العلامة ، وثوب يلبس تحت الدثار ــ والدثار : ثوب يلبس فوق الشعار

(٦) الثني : مصدر ثناه عن الامر يثنيه ، اي : صرفه عنه

الجبن

بَحَثتَ في طبائع البشر، فلم أجِدْ خُلُقاً من الأخلاق الدَّنيئةِ، أدنى الى الصَّغار[1]، وأقربَ إلى الموتِ في الحياة، من الجُبنِ .

ذَلك الخُلُقُ، ما تأصَّلَ في نُفوس قومٍ إلاَّ ضربَ عليهم الذِّلَّةَ والمَسْكَنة[2]، فباءُوا بالوَضاعة[3] والخُمُول، ثم بالانحلال فالموت .

يُداهِمُ[4] الأُمةَ العدوُّ، فتَجْبُنُ عن صدِّ غاراته، وتَفرَقُ من مُنازَلته[5]، بما تَمَرَّنَتْ عليه نُفُوسُ أفرادها من الجُبنِ؛ فيَجُوسُ خِلالَ الدِّيارِ[6]، ويَكْتَسِحُ[7]،

(١) ادنى : أقرب — والصغار : الذل والضيم

(٢) تأصل : تمكنت اصوله وثبتت — والمسكنة : الضعف والذل والفقر

(٣) باءوا : رجعوا — والوضاعة : الخسة والانحطاط

(٤) يداهم : يأتي على حين غفلة

(٥) تفرق : تخاف وتهاب

(٦) يجوس خلال الديار : يدور فيها بالعيث والفساد

(٧) يكتسح البلاد : يستولي عليها ويأخذها

البلاد ، ويَستَعبِدُ الجماعاتِ والأفراد ، فلا يُرى لهُ مِن صادٍّ ، ولا لأفاعيله[1] من رادٍّ .

ويقوم فيها رَهطٌ[2] أُولو فساد ، فلا يَجدون لهم أحداً بالمرصاد[3] ، فيُهلِكون الحرثَ والنَّسلَ[4] ، ويَجعلون الأمةَ كالحيوانات العُجمِ . ولولا داءُ الجبنِ لرَدَّتهم على أعقابهم خاسرينَ ، وضَربَتهم ضَربةً لا تقوم لهم بعدَها قائمةٌ .

فالسُّكوتُ على عَملِ من يُريدُ بالأُمةِ السُّوءَ خَلَّةُ[5] الجُبناء ، ومُناهضةُ[6] الظَّالمِ من دلائل حياةِ الأُمةِ ؛ فإن حياتَها بما يَنبغُ فيها منَ الشُّجعانِ[7] .

قبيحٌ ، وربِّ الكَعبة ، أن يقوم بيننا الجاهلُ في زيِّ العُلماء ، والفاجرُ في مَظهر الأتقياء ، والخاملُ في صورة النُّبهاء ،

---

(١) الافاعيل : جمع افعال ، ومفرد الافعال فعل ، وأكثر ما تطلق الافاعيل على الافعال المنكرة

(٢) الرهط : ما دون العشرة من الرجال . ورهط الرجل : قومه وعشيرته.

(٣) المرصاد : الطريق ، والمكان يرصد فيه العدو

(٤) الحرث : الزرع — والنسل : الخلق والولد والذرية

(٥) الخلة : الخصلة والخلق ، وجمعها خلال

(٦) المناهضة : المقاومة

(٧) نبغ الشيء ينبغ : ظهر . وبابه نصر وقطع ودخل.

والعاجزُ في هيئةِ القُدَراء [1] ، والميتُ في لباس الأحياء .

وأقبحُ من ذلك أن نُسلّم لهم هذه الدّعوى رِئاءً [2] ونِفاقًا ، طمعًا في جرّ مغنمٍ ، أو لخَوَرٍ [3] في النّفس ، وضعفٍ في الأخلاقِ .

وأشدُّ قبحًا أن نُدافعَ عن الظّالم ومن يُريد بالأمة الشّرّ ، ونَصِفَهُ بالخِلال الطّيّبة ، وحُسنِ النّيّة وصدقِ العمل .

إنّ مثلَ هذا الخُلُقِ الشّائن [4] — الذي مَصْدرُهُ الجُبْنُ — غِشٌّ للأمة ، وتغريرٌ بها [5] ؛ لأنها تَستسلمُ الى من يكون القاضيَ على حياتها ، والهادمَ مبانيَ اجتماعها ، والمُقوّضَ [6] أركانَ أخلاقها .

فأُعيذُكم بالله ، معشرَ النّاشئين ، أن تكونوا من الجُبناء ، السُّفَهاء الأدنياء ؛ فإنّ الجُبْنَ داءٌ أيُّ داء !

---

(١) القدراء : جمع قدير وقادر

(٢) الرئاء : التظاهر بخلاف ما في الباطن

(٣) الخور : الضعف ، والفتور ، والجبن

(٤) الشائن : العائب

(٥) غرّر به تغريراً : عرّضه للهلكة

(٦) المقوض : المهدم

عوّدوا أنفسكم الشجاعة ، تعتادوا الإباء والشمم [1] ، والصدق في القول ، والنجاح في العمل .

إنّ الجبن قد ضرّ بالامة ، حتى جعلها في أسفل الدركات [2] ؛ فسطا عليها الجائر [3] ، واستبدّ بأمرها الجاهل ، وغرّر بها الفاجر . فإن دامت الحال ، ساء المآل [4] .

فلا تأخذكم في الحق لومة لائم ، ولا ترهبكم سطوة ظالم ؛ فإنّ في الجبن الموت ، وفي الشجاعة الحياة .

إنكم ستكونون غداً آباء ، فكونوا لأبنائكم قدوة صالحة ، تحيي بكم الأمة حياة السعداء .

---

(١) الاباء : الامتناع من كل ما يشين — والشمم : الأنفة وعزة النفس

(٢) الدركات : جمع دركة وهي المنزلة السافلة ؛ وهي في الأصل للنازل كالدرجة للصاعد

(٣) سطا : صال ووثب وقهر — والجائر : الظالم

(٤) المآل : المرجع والمصير

التهور [1]

إذا كان الجُبنُ خُلُقًا سافلاً، ومَثْلبةً [2] للجَبانِ عظيمة، فالتَّهوُّرُ لا يَقِلُّ عنه مَنقصةً؛ لأنَّ في كلا الخُلُقينِ ضرراً لاحِقاً بالإنسان.

الجُبْنُ في الأعمالِ داعيةُ الإخفاقِ فيها [3]، والتَّهوُّرُ في الإقدام عليها، قبلَ التَّروِّي، سببٌ لعَدمِ التَّوفيق أيضاً.

رأينا جماهيرَ المُتَحَمِّسين يندفعون في أمرٍ من الأمور، ثمَّ لا يَلْبَثُون [4] أن يَرجِعُوا بِخُفَّيْ حُنَيْن [5]؛ فلا يُوَفَّقُون فيما اندفعوا فيه. وإنَّ هِمَمَهم لَتَبْرُدُ بعدَ قليلٍ من تَحمُّسِهم.

ما سِرُّ ذلكَ؟

إن السِّرَّ واضحٌ لكلِّ مُفكِّر: وذلك أنَّ كلَّ عَملٍ

---

(١) التهور: الوقوع في الامر بلا مبالاة

(٢) المثلبة: العيب والمنقصة والمسبة

(٣) الاخفاق: عدم الظفر بالمطلوب

(٤) لا يلبثون: لا يمكثون

(٥) رجع بخفي حنين: مثل يضرب لمن رجع خائباً

من الأعمال ، منهُ ما يكون ، ومنه مالا يكون . فالعاقلُ من يَتروّى في الأمرِ قبلَ الإقدامِ عليه ؛ فإن رأى أنهُ مِمَّا يكون ، وجّهَ عزيمتَهُ اليه ، واندفعَ نحوَهُ ؛ وإن رأى أنه ممَّا لا يكون لم يُضيّعِ الوقتَ عبثًا في محاولةِ إيجادِه .

التّهوُّرُ ضارٌّ . وهوَ كالجُبنِ في عدمِ حصُولِ الفائدة منه :

فإن رأيتَ رجلاً جارَ عن القَصْد [١] ، واتَّبعَ غيرَ سبيل الرُّشد ، فأحجمتَ عن إرشاده [٢] ، وجَبُنْتَ عن إبداء النَّصيحةِ له ، ظلَّ سائراً في طريق ضلالهِ ؛ فكذلك إن أردتَ أن تَصرِفَهُ بالشِّدَّة ، وتمنعَهُ بالجَبْهِ والقَسْوة [٣] ، فلا يُعيرُ زَجْرَكَ أُذُنًا صَغواء [٤] ؛ بلْ رُبّما تمادَى في عِناده ، وازداد في طُغيانه [٥] ؛ فتَضيعُ بذلكَ الفائدةُ التي كنتَ تتوخّاها [٦] ، والنَّتيجَةُ التي تَنْشُدها [٧] .

---

(١) جار عن القصد : عدل عنه ومال — والقصد : استقامة الطريق ، والتوسط في الامور ، وهو نقيض الافراط فيها
(٢) احجمت : تأخرت
(٣) الجبه : الشدة ، وأصل معناه : ضرب الجبهة
(٤) الزجر : المنع والانتهار — وصغواء : مصغية
(٥) الطغيان : مجاوزة الحد
(٦) تتوخاها : تتحراها وتسعى اليها وتتطلبها
(٧) تنشدها : تطلبها

التَّهوُّرُ سِرٌّ عظيمٌ من أسرار الإخفاقِ في الأعمال[1] ، واليهِ يَرجعُ مُعظَمُ الأسبابِ في ضَياعِ ثَمراتِ مَجهُوداتِنا ، وإفلاتِ الصَّيدِ من يَدِنا ·

فاتَّقِ ، أَيُّها النَّاشيُّ ، التَّهوُّرَ ؛ فإنَّه مَدعاةُ الخَيبةِ[2] ؛ وتَجنَّبِ التَّسرُّع ؛ فإنَّ مَغبَّتَهُ الزَّلَلُ[3] ·

وكُنْ أُمَّةً[4] وَسطاً[5] ، تكُنْ من المُفلِحين ·

٠٠٠٠٠٠٠٠

---

(١) الاخفاق : الخيبة

(٢) مدعاة الخيبة : السبب فيها

(٣) المغبة : العاقبة — والزلل : السقوط

(٤) الامة : الجماعة تجمعها حال واحدة ، وانما وصف به الناشيء هنا رجاء ان يكون أمة بنفسه ان شاء الله

(٥) وسطاً : معتدلاً في الأمور

الشجاعة

مِلاكُ[١] النَّجاحِ في الأَعمالِ أَن يكون في نَفسِ العاملِ شجاعةٌ تَدفعهُ الى العمل ؛ فلا يَرجعُ عنهُ حتى ينالَ مايريدُ .

وَما أفلحَ العاملونَ إلاَّ بهذا الخُلُقِ الشَّريف ؛ فهو يُمكِّنُ المُتخلِّقَ بهِ من ناصية[٢] خَطيرِ الأُمور[٣] ، حَتَّى تُلقي اليهِ صعابُها بالمَقاليد[٤] .

الشَّجاعةُ : هيَ الحَدُّ الوَسطُ بينَ رَذيلتَي الجُبْنِ والتَّهوُّر ؛ فَفي الجُبن تفريطٌ[٥] ، وفي التَّهوُّرِ إفراطٌ[٦] ، وفي الشَّجاعةِ السَّلامَةُ .

الشجاعةُ : أَن تُقدِمَ حَيثُ تَرَى الإقدامَ عَزْماً ، وتُحجِمَ[٧] حيثُ ترى الإحجام حَزْماً[٨] .

---

(١) ملاك الشيء : نظامه وقوامه الذي به يقوم

(٢) الناصية : مقدم الرأس ، والتمكن من ناصية الأمر : كناية عن الاستيلاء عليه

(٣) الخطير : العظيم

(٤) المقاليد : المفاتيح ، ومفردها مِقلاد

(٥) التفريط : التضييع والتقصير

(٦) الافراط : مجاوزة الحد

(٧) تحجم : تتأخر

(٨) الحزم : ضبط الامر والاخذ منه بالثقة

وهي قسمانِ : شجاعةٌ أدبيَّةٌ ، وشجاعةٌ مادِّيَّةٌ ؛ وكِلتاهُما من ضرُوريّاتِ الحياةِ .

فالثّانيةُ يَدفعُ بها المرْءُ عن وطنه وعن نفسهِ عواديَ[١] من يُريدُ بهما السُّوءَ ؛ ويُكافِحُ الأعداء[٢] في سبيل تعزيز الأُمة ، الى أن يَقضِيَ اللهُ أمراً كان مفعولاً . فإن انتصرَ ألبسَ الوطنَ مطارِفَ الشَّرفِ[٣] ، وحلَّى جِيدَهُ[٤] بعقُود الفَخر . وإن لم يُوفَّقْ فِيما قصدَ اليه كان له أجرُ العامل المُخلِص

والأُولى يَرُدُّ بها الظَّالمَ عن ظُلمهِ ، والغاويَ[٥] عن غيِّهِ ؛ ويُرشِدُ الأُمةَ ، بالعِظَةِ النَّاجعَةِ[٦] ، إلى السَّبيلِ القَويمةِ لِتَسلُكَها ، والطَّريقِ اللاحِبِ[٧] لِتَمشيَ فيهِ .

فإنْ فُقِدَتْ هذهِ الشَّجاعةُ ، تمادَى الجائرُ[٨] ، وازدادَ

---

(١) العوادي : النوازل

(٢) يكافح : يقاتل ، والمكافحة : استقبالك العدو في الحرب وجهاً لوجه ليس دونك ترس او غيره

(٣) المطارف : جمع مطرف — بكسر الميم وضمها وفتح الراء — وهو رداء من الحرير مربع ذو اعلام

(٤) الجيد : العنق

(٥) الغاوي : الضال

(٦) الناجعة : الناجحة

(٧) اللاحب : الطريق الواضح المسلوك

(٨) الجائر : الظالم

ضَلالُ الضَّالِّ ، وَمَشَتِ الأُمَّةُ في غيرِ مَنْهجِ الصَّواب[1] ؛ فكانت العاقبةُ شرًّا .

وإن اضمحلّت تلك[2] ، كانت البلادُ نَهْبًا مُقَسَّمًا ؛ يُصاحُ في حَجَراتِها[3] ، فلا يُلفَى للصَّائحِ مُسكِتٌ ؛ ويُعاثُ[4] في أكنافِها[5] ، فلا يُرى للعائثِ من رادٍّ . وهناكَ الطَّامَّةُ الكُبرى[6] ، التي تجعلُ أفرادَ الأمةِ عَبيدَ العَصا ، والبَليَّةُ العُظمى التي تجتاحُ[7] مُمَيِّزاتِ تلك الأُمــة ، وتَقضي على حياتها الاستقلاليَّة ، حتى تجعلَها كأمسِ الدَّابر .

هذا ، إن جَبُنَتِ الأُمَّةُ جُبنًا معنويًّا أو مادّيًّا .

وإن تَهوَّرتْ في الدِّفاع ، فَفي الغالب أن يُصيبَها ما أصابَها في حال جُبنها ؛ لأنها ، إن أقدمت على المُصادمة ، قبل أن تأخذ للأمرِ أُهبتَه[8] ، وللكِفاحِ عُدَّتَه ، كانت النتيجة شرًّا أيضًا

---

(١) المنهج : الطريق الواضح

(٢) اضمحلت : ذهبت وانحلت وتلاشت . والاشارة بتلك الى الشجاعة المادية

(٣) الحجرات : بفتح الحاء والجيم : النواحي . والمفرد حجرة بفتح الحا . وسكون الجيم . وقولهم : « دع عنك نهباً صِيحَ في حجراته » هو مثل يضرب لمن ذهب من ماله شيء ، ثم ذهب ما هو أجل منه وأعظم

(٤) يعاث : يفسد . والعائث : المفسد

(٥) الاكناف : الجوانب والنواحي ، والمفرد كنف ، بفتح الكاف والنون

(٦) الطامة : المصيبة التي تطم ، اي : تقوى حتى تتغلب

(٧) تجتاح : تستأصل وتمحو

(٨) الأهبة : العدّة

فإن قِيلَ : إن كان لا بدَّ من أحدِ أمرين : التَّهوُّرِ أو الجبن ، فأيُّهما خيرٌ للأمة ؟

فالجوابُ على هذا : أنْ ليس وراءَ الجُبْنِ خيرٌ قطُّ ؛ وأمَّا التَّهوُّرُ فقدْ ينالُ صاحبُهُ ما يُريد .

والسَّلامةُ من ذلك أن تُربَّى في الامة روحُ الشجاعة ؛ فهي الحِصْنُ الحَصِين (١) والمَعْقِلُ (٢) الأمين .

فبالشَّجاعة ، معشرَ النَّاشئين ، تخلَّقُوا ، وبحَبْلِها اعتصِمُوا ؛ ولا تدَعُوا لِمرَضِ الجُبْنِ ، وإبليسِ التَّهوُّرِ ، إلى قُلوبكم سبيلاً ؛ فإنَّ الجُبْنَ من البَلادة ، والتَّهوُّرَ من الحُمْق ، والشَّجاعةَ من أخلاق المُؤْمنين .



(١) الحصين : المنيع
(٢) المعقل : الملجأ

المصلحة المرسلة [١]

دخلَ أعرابيٌّ على هشامِ بنِ عبدِ المَلِك ، فقال : « يا أميرَ المؤمنين ، أتت علينا ثلاثةُ أعوام : فعامٌ أذابَ الشَّحم ، وعامٌ أكلَ اللَّحم ، وعامٌ أنتقى العَظْم [٢] ؛ وعندكم فُضولُ أموال [٣] ، فإن تكنْ لله فبثُّوها في عباد الله [٤] ، وإن تكن للناس فلمَ تُحجَبُ عنهم [٥] ؟! وإن كانت لكم فتصدَّقُوا بها ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المتصدِّقين » . قال هشام : « هلْ من حاجةٍ غير هذه يا أعرابيُّ ؟ » قالَ : « ما ضربتُ اليك أكبادَ الإبل [٦] ، أدَّرِعُ الهجيرَ [٧] ، وأخوضُ الدُّجا [٨] ، لخاصٍّ دُونَ عامٍّ » .

فأمرَ له هشامٌ بأموالٍ فُرِّقت في النَّاس ، وأمرَ

(١) المصلحة المرسلة : هي التي يقصد بها النفع العام

(٢) انتقى العظم : اخرج نقيه أي مخه ، وهو ما في داخل العظم من الدسم

(٣) فضول الاموال : مازاد منها عن الحاجة ؛ والمفرد فضل

(٤) بثوها : فرقوها

(٥) تحجب : تمنع

(٦) ضربت اليك أكباد الابل : رحلت اليك من مكان بعيد

(٧) ادرع الهجير : البسه كالدرع — والهجير : شدة الحر

(٨) الدجا : سواد الليل • وادراع الهجير وخوض الدجا مجاز عن السير فيهما

للأعرابيّ بمالٍ فرّقه في قومه .

إنّ لهذا الأعرابيِّ ، أيُّها النّاشئ ، نفساً كبيرة ، ووِجداناً صحيحاً ، وغيرةً على قومه وغيرِ قومهِ عظيمة ؛ وذلك ما دعاهُ ألاّ تكون له الأثرةُ [1] بالخيرِ دونَ سِواه ؛ لأنّه علِمَ عِلْمَ اليقينِ أنّ حياةَ الفَردِ حياةَ السّعادةِ ، وقومُه في الشّقاء ، لهِيَ حياةُ الذّلّ وعيشةُ البُؤسِ [2] .

كيفَ يرضى العاقلُ أن يكون في بُحبُوحةٍ من الخير [3] ، ومن يُحيط به من الناس في ضَنْك العيش [4] ! ؟

بل كيفَ لا يأنفُ [5] أن يرى الشّقاءَ قد عمّ الأُمة ، وهو لا يَعبأُ [6] بما يعتريها من الآلام ، ولا يألمُ لِما في أفئدتها من السِّهام [7] ؟ !

إنّ ذلك لَمِنَ ضَعفِ الشُّعور ، وموتِ الوِجدان ، وفسادِ الأخلاق ! وإنّ من يرضى بذلك ، ولا يشعرُ بما

(١) الاثرة : الاستئثار والاستبداد
(٢) البؤس : الشقاء والشدة
(٣) البحبوحة : السعة ، ووسط الشيء
(٤) ضنك العيش : ضيقه
(٥) لا يأنف : لا يستنكف
(٦) لا يعبأ : لا يبالي
(٧) السهام : النبال ؛ والمفرد سهم

يُصِيبُ المجموعَ ، لَهُوَ من البهائم ، التي لا تَعرِفُ من الحياة إلاّ اللّهوَ والطّعامَ والشّراب .

وأكثرُ بهيمِيّةً منه ، وأشدُّ وَطأَةً[1] على الحياة الاجتماعية ، مَن يَسعَى لمصلحته الشّخصيّةِ سَعيَها ، وهُوَ يَعلَمُ أنها السّهمُ النّافذُ في صَميم المصلحةِ العامّة[2] ، والقضاءُ المُبرَمُ[3] على حياة المجموع !

إنّ مِثلَ هؤلاء النّاسِ عِبءٌ[4] ثَقيل على المُجتَمع ، ومرَضٌ وَبِيل[5] في جسم الاجتماع .

ألا يَدري من كان على هذه الشاكلة أنّ عَمَلَهُ يَعودُ عليهِ بالخُسران !

ألا يعلمُ أنه فَردٌ من أفراد الامةِ التي سَعَى للضَّرَر بها !

ألا يَفهَمُ أنّ ضرَرَ المجموعِ يعود على الفَرد !

أمْ يَظُنُّ أنه ناجٍ من سُوءِ عَمَلِهِ ، مُتَفَصٍّ[6] من عاقبة شَرّه !

---

(١) الوطأة : الضغطة والدوسة ، ويراد بها الشدة

(٢) الصميم : العظم الذي به قوام العضو

(٣) القضا المبرم : الذي لا مَرَدّ له

(٤) عبء : حمل

(٥) وبيل : شديد

(٦) متفص : متخلص متملص

إنْ ظَنَّ ذلكَ ، فقد ظَنَّ باطلاً ، لأننا لم نَرَ أحداً يَضُرُّ الأمةَ لمنفعة نَفسهِ ، إلاَّ عاد عليه عملُه بالضَّررِ المُبِينِ . والأَمثلةُ على ذلك أكثرُ من أن تُحْصَى .

ألا ، إنَّ هناكَ قوماً قد ضرب اللهُ بينهم وبينَ الحقِّ بِسُورٍ ، ظاهِرُهُ فيه الرَّحمةُ ، وباطنُه من قِبَلِهِ العَذابُ[1] ؛ فهمْ يَعْمَلُون على خَضْدِ شَوْكَةِ الأُمة[2] ، وإضعافِ بأْسِها[3] وإضاعة حقِّها ، وإبقائِها في بِيئَةِ الخُمولِ والاستكانة[4] . وما لهم في ذلك من فائدة ، وليس لهم من عائدة[5] ؛ إلاَّ ما ينالُهم من ثَناء حاكمٍ ، أو بَشاشتهِ في وُجوهِهم ! وإن نالتهم فائدةٌ مادّية ، فهي لا تُسْمِنُ ولا تُغنِي من جوع . وإنما هو النِّفاقُ والرِّياء ، يدفعان بِمثل هؤلاء الناسِ الى تَحْبِيذ أعمال أهلِ الأَثَرَة ! وليتهم يَحسبُونَ أنهم يُحْسِنُونَ صُنعاً ؛ بل هُم يَعْلَمون كلَّ العلمِ أنهم وراءَ إسقاطِ الأُمةِ ساعون ، ونحوَ ما يُخمِلُ ذِكْرَها سائرون ، وعلى ما يُميتُها عاملون ، فهم

---

(١) من قبله : من جهته

(٢) خضد الشوكة : كسرها وقطعها

(٣) البأس : القوة والشدة

(٤) البيئة : المنزل — والاستكانة : المسكنة والذل

(٥) العائدة : المنفعة ، وما يوصل به الانسان من معروف

الضَّالُّون المُضِلُّون، وأُولئك هُم شَرُّ البَرِيَّة [1]

فتجنَّبوا، مَعشَرَ النَّاشئين، أعمالَهم، وَقُوا أنفُسَكم مَعَرَّةَ أفعالهم [2]؛ ولا تكونوا من الفراسِيِّينَ [3] القائلين:

مُعلِّلتي بالوَصلِ، والموتُ دونَهُ،
إذا مِتُّ ظمآنًا فلا نَزَلَ القَطْرُ

بل كونوا من المَعَرِّيِّينَ [4] المُنادين:

فلا هَطَلَتْ عَليَّ ولا بأرضي
سحائِبُ ليس تَنتظِمُ البِلادا [5]

تكونوا مِمَّن هُدِيَ الصِّراطَ المُستقيم [6].

---

(١) البرية : المخلوقات

(٢) قوا : احفظوا — والمعرة : السوء والاثم ، والجناية

(٣) المراد بالفراسيين دعاة المنفعة الشخصية ، نسبة الى ابي فراس الحمداني الشاعر المشهور ابن عم سيف الدولة قائل هذا البيت

(٤) المراد بالمعريين دعاة المنفعة العامة ، نسبة الى ابي العلاء المعري الشاعر الفيلسوف العربي الشهير قائل هذا البيت

(٥) السحائب : الغمام الممطر ، والمفرد سحابة — وتنتظم البلاد : تعمها وتنفذ الى جميع اقطارها

(٦) الصراط المستقيم : الطريق المعتدل الذي لا عوج فيه

الشرف

نَظَرْتُ في أخلاق النَّاس ، ونَقَّبت عن نُفُوسهم ؛ فلم أرَ نفساً لم تدَّعِ الشَّرَف .

سَلِ العالِمَ والجاهل ، والصَّالحَ والطَّالح ، والمُخْلِصَ والمُنافِق ، وكلَّ مَنِ اُنصَفَ بخَلَّةٍ[١] حميدة أو ذميمةٍ ، يُجبْكَ أنَّهُ شريفُ النَّفس .

لِكلِّ إنسانٍ أن يدَّعي هذه الدَّعوى ؛ غيرَ أنهُ ليس لكلِّ إنسانٍ أن يُصدِّقها ؛ مالم يُحقِّقِ الخَبَرَ الخُبْرُ[٢] ؛ وإلاَّ اُختلَطَ الحابِلُ بالنَّابِل[٣] ، والفارسُ بالرَّاجِل[٤] .

يزعُمُ كثيرٌ من النَّاس أن الشَّرَف إنما هو بما عندَ الإنسانِ من الثَّرْوة ؛ وبقَدْرِ ما لَدَيهِ منها يَختالُ عُجْباً[٥] ،

---

(١) الخلة : الخصلة ؛ والجمع خلال

(٢) الخبر بضم الخاء : الاختبار

(٣) الحابل : الصائد بالحبالة وهي الشبكة — والنابل : الرامي : بالنبل

(٤) الفارس : الراكب الفرس — والراجل : الماشي على رجليه

(٥) يختال : يتكبر ويتبختر

وَيميسُ نخاراً[1]. فهو يَحتقرُ الضُعفاءَ، ويزْدَري الفُقراءَ.

ومن الغريب أن يَجدَ هـذا الشّريفُ الواهِم نُصراءَ يرفَعون من مَقامه، وأذِلاَّءَ يَسْجُدونَ أمامَ قدَمَيْهِ. ورُبَّما لا يَنالهم من عملهم هـذا ما يستعينون به على سَدِّ عوَزِهم[2]، وإصلاح مَعايِشِهم. وإنما هو النِّفاق أو الذُّلُّ. وما ذلك إلاَّ من فسادٍ في تربيتهم ومَرَضٍ في أخلاقهم.

ولو يَعلَم من يَدَّعي الشَّرَفَ — لِوُفورِ ثروَتهِ[3] — أنهُ إنْ يَقلِبْ لهُ الدَّهرُ ظَهرَ المِجَنّ[4]، ويُكَشِّرْ لهُ الزّمانُ عن نابهِ، فيُصبحْ فقيراً بعـدَ الغِنَى، محتاجاً بعدَ الثَّروة، يَخفِضهُ[5] من كان لهُ رافعاً، ويَنأَ عنهُ من كان منه دانياً[6]، لأَقلَعَ[7] عن الفَخار، ولبسَ غيرَ هذا الدِّثار[8].

ويَظُنُّ آخرونَ أنَّ الشَّرَف هو ما أُوتِيَ[9] الإنسانُ من

---

(١) يميس : يتمايل عجباً

(٢) العوز : الحاجة

(٣) الوفور : الكثرة

(٤) قلب له الدهر ظهر المجن : تغير عليه او أساء اليه — والمجن : الترس . وهذا مثل يضرب لمن ساءت حاله بعد الصلاح

(٥) يخفضه : جواب الشرط ، وهو : « ان يقلب »

(٦) ينأ : يبعد — ودانياً : قريباً

(٧) لأقلع : جواب « لو »

(٨) الدثار : الثوب

(٩) أوتي : اعطيَ

قوَّةٍ في بدنه ؛ فهو يحتقر الضُّعفاء ، وإن كان لديهم من العقل ما يطولون به الجوزاء[١] .

ولو علِمَ أن الأسدَ أجرأُ منهُ وأقوى ، وأنَّ الجملَ أصلبُ عوداً ، وأضخمُ جِسماً ، وأروعُ هيئةً[٢] ، فهما أولى منهُ بِذلك ، لرَجعَ عمَّا يدَّعيهِ صاغراً ، وتركَ الفَخار بالقُوَّة والبَطْش .

ويَخالُ قومٌ أنَّ الشَّرَفَ في أن يَشفَى المرءُ بمرَضِ الأُمة ، ويَحيا بموتها ، ويَقوَى بضَعفها ، ويرتفعَ بانحطاطها ، ويَعِزَّ بِذُلِّها ، ويَمجُدَ بِسَفالتها[٣] .

ولو فكَّروا قليلاً لعلموا أنَّهم مُخطئُون ، وفي غُرورهم[٤] يَعمَهُون[٥] . فالشَّريفُ إنَّما يَشرُفُ بِشَرَفِ الأُمة ، ويَحيا بِحياتها ؛ فإن هانَتْ هانَ ، وأن ماتَتْ مات .

إنَّ الشَّرفَ الصَّحيحَ ، والمَجْدَ الرَّجيحَ[٦] ، لا يَكونان

---

(١) يطولون ينالون – والجوزاء : برج في السماء

(٢) أورع : أعجب وأفزع

(٣) يمجد : يشرف

(٤) الغرور : الباطل ، وتزيين الخطأ بما يوهم انه صواب

(٥) يعمهون : يتحيرون ويترددون في الضلال

(٦) الرجيح : الرزين

إلاّ لِمَنْ توفّرت [١] فيه المُرُوَّة [٢] والشَّهامة [٣] وطهارةُ الوِجدان ، ونالَ قِسطاً من العلم ، ونَشَطَ الدّاعينَ اليه . فمَنْ فعل ذلك فهو مِمَّن طابت سريرتُهم [٤] ، وزكَتْ بينَ النَّاسِ سِيرتُهم [٥] .

هَيهاتَ [٦] أن يكون شريفاً ماجداً ، من كانَ جاهلاً سفيهاً ؛ يزدَري النُّبهاء ، ولا يُبالي العُقلاء ، ولا يأبَهُ للعُلماء [٧] ، ويَكرَهُ لأمته الارتقاء .

ليس من الشَّرَف والوَجاهة في شيء مَنْ يَستَبِدُّ بِمَرافقِ الأمة [٨] ، ويَستأثِرُ بِمَنافعها [٩] ، ويَحقِرُ مجموعها [١٠] ،

---

(١) توفرت : كثرت واتسعت

(٢) المروءة : النخوة ، وكمال الرجولية ، وهي مجموعة آداب نفسانية تحمل مراعاتها الانسان على الوقوف عند محاسن الاخلاق وجميل العادات

(٣) الشهامة : الحرص على مباشرة أمور عظيمة تستتبع الذكر الجميل

(٤) السريرة : ما يُسرُّه الانسان ويكتمه خيراً كان او شرًّا . وفلان طيب السريرة : سليم القلب صافي النية ؛ والجمع سرائر

(٥) زكت : طابت وصلحت — والسيرة : ما يسير عليه الانسان من الاعمال

(٦) هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بعد ، مبني على الفتح ؛ ويجوز بناؤه على الكسر ايضاً

(٧) لا يأبه : لا يكترث ولا يبالي

(٨) المرافق : المنافع

(٩) يستأثر بمنافعها : يستبد بها ويخص بها نفسه دون غيره

(١٠) يحقر : يحتقر

وَيَنْهَدِمُ كِيَانُهَا [١] .

الشَّرِيفُ مَنْ يَخْدُمُ الوَطَنَ خِدْمَةً صَحِيحَةً تُعْلِي شَأْنَهُ ، وَتَرْفَعُ مِن مَكَانَتِه ، وَيَهُونُ [٢] فِي سَبِيلِ إِعْزَازِه ، وَيَمُوتُ بُغْيَةَ إِحْيَائِه .

هٰذَا هُوَ الشَّرَفُ الحَقُّ ، مَعْشَرَ النَّاشِئِين ؛ فَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِه [٣] ؛ فَإِنَّهُ حَبْلُ اللهِ المَتِين ؛ وَالْجَؤُوا إِلَى حِصْنِه ؛ فَإِنَّهُ حِصْنُ اللهِ الحَصِين .

إِنَّ الوَطَنَ يَدْعُوكُم إِلَى خِدْمَتِه ، فَأَجِيبُوه ؛ وَالأُمَّةَ بَاسِطَةٌ إِلَيْكُم أَيْدِيَهَا ، فَمُدُّوا إِلَيْهَا أَسْبَابَ النُّهُوض [٤] ؛ وَأَعِينُوهَا مِنْكُم بِقُوَّةٍ ، تَحْيَ بِكُم حَيَاةً طَيِّبَةً ، وَتَرْقَ إِلَى أَعْلَى عِلِّيِّين [٥] .

---

(١) كيان الامر : ما يكون عليه

(٢) يهون : يذل

(٣) اعتصموا : تمسكوا

(٤) الاسباب : الوسائل ؛ وأصل معناها الحبال ؛ والمفرد سبب

(٥) أعلى عليين : أعلى المراتب — وعليون : اسم لأعلى الجنة

الهجعة واليقظة [١]

للأمم ، كما للأفراد ، هجماتٌ ويقظاتٌ :

فتارةً تتغلّبُ عليها الأولى فتُخمِلُها ، وطوراً تهيجُها [٢] الأخرى فتنبّهها . وقد كان هذانِ العاملان ، ولم يزالا ، في تنازُعٍ وخصام . ولم يَكُنْ ، ولا يكونُ ، بينَهما سكينةٌ وسلام ؛ ذلكَ لأنهما ضدّان . والضِدان لا يجتمعان .

وإنّ لهذه الغلَبةِ أسباباً وعِللاً ، رُبّما اختلَفَت في الظّاهر ؛ ولكنّها مُتّفقةٌ من حيثُ الحقيقةُ ، إذْ إنها تُنتِجُ نتيجةً واحدةً ، هي تنبيهُ الأمةِ أو إخمالُها . ويختلفُ التنبُّهُ أو الخمولُ ، قوّةً وضعفاً ، باختلاف أسبابها المؤثّرةِ في نفوس الأمم ، التي انتشرت فيها تلك العِلَلُ أو الأسباب .

أما الأسبابُ التي تجعَلُ الأمةَ خاملةً ، متقهقِرةً [٣] ساقطةً ، فهيَ كثيرةٌ :

---

(١) الهجعة : الغفلة وأصلها من الهجوع ، وهو النوم ليلا — واليقظة : التنبه ، وهي بفتح الياء وسكون القاف ، أما في الجمع فتفتحان

(٢) تهيجها : تُحرّكها

(٣) متقهقرة : متأخرة راجعة الى الخلف

منها : جمودُ كثيرٍ من علماء الأديان ، ووقوفهم سدًّا منيعاً أمامَ تيارِ الأمةِ المندفعة إلى التقدُّم ، لتكونَ من كُبريات الأمم الحيّة . ومنهم من يتخذونَ الدّينَ وسيلةً لمآربهم ، وشَرَكاً [١] يصطادون به عقول العامّة ، ليرجعوهم عن نُصرة المُصلحين ، ومتابعةِ علماء الكونِ والاجتماع ؛ فيُكفِّرونَ ويُفسِّقون ، ويُحلِّلونَ ويُحرِّمون ، وربّما دماءَ الأبرارِ يُبيحون [٢] . وما ذلك إلاّ نتيجةٌ من نتائجِ جهلهم أو غرورهم أو ضعفِ أخلاقهم ، لو كانوا يعلمون .

ومنها استبدادُ الرؤساء وأربابِ النفوذ ، وظلمُ الحكّامِ واضطهادُهم [٣] من يريدُ أن ينهضَ بالأمةِ من دركاتِ [٤] السّفالةِ ، وهُوى الجهلِ [٥] ، وأخاديدِ الخمولِ [٦] ، إلى مُستوى [٧] الفضلةِ والعلمِ والتنبُّه .

وهناك أسبابٌ أُخرُ لا يسعُ المقامُ ذِكرَها . وهي ،

(١) الشرك : المصيدة

(٢) الابرار : الاخيار المحسنون

(٣) الاضطهاد : القهر والايذاء

(٤) الدركات : جمع دَرَكة ، وهي : المنزلة السافلة ؛ وهي في الأصل للنازل كالدرجة للصاعد

(٥) الهوى : جمع هُوّة وهي الحفرة العميقة ، وما بين الجبلين

(٦) الاخاديد : جمع أخدود ، وهي : الحفرة المستطيلة في الارض

(٧) المستوى : المستقر

مَعَ ما تَقَدَّمَ من الأسباب ، تُخمِلُ الأمَّة ، وتَسوقها الى مجازِرِ [1] الهوانِ والتأخر .

فتلكَ هي حالةُ الأمةِ في هجعاتها ، وهذه هي الأسبابُ التي تجعلُها قيدَ سلطانِها [2] .

وأما حالتُها في يقظاتها ؛ فهي على غيرِ ما تقدَّمَ ؛ لأنها تكونُ ، إذْ ذاكَ ، أمةَ رفيعةَ الشأنِ ، ساميةَ المقامِ ، عزيزةَ الجانبِ ، منيعةَ الحِمى [3] ، جهوريَّةَ الصوتِ [4] ، ممتدَّةَ السُّلطة

ولا تكونُ على هذه الحالةِ إلاَّ إذا تقدَّمتها أسبابٌ توصلُها إلى الغاية التي ذكرناها .

وإنَّ هذه الأسبابَ كثيرةٌ أيضاً :

منها : نبوغُ [5] أفرادٍ في الأمة ، يؤلمهم بقاءُ أمتهم في الجهل والخمول والسقوط ؛ فيبثُّون [6] في الأمة روحَ الهمَّةِ والنُّفرة مِمَّا يضرُّ بها ، ويوقدون فيها نارَ العزيمة والاستعداد

---

(١) المجازر : جمع مجزر ، وهو مكان الجزر ، أي الذبح

(٢) القيد : حبل ونحوه يجعل في رجل الدابة يمسكها ، وفلان قيد فلان ، أي : هو في قبضته — والسلطان : السلطة والتسلط

(٣) الحمى : ما يحميه الانسان من شيء

(٤) جهورية الصوت : مرتفعته ، نسبة الى الجهورة ، والجهور : العالي الصوت كالجهوري

(٥) النبوغ : الخروج والظهور في عظمة وشأن ، والنابغة : العظيم الشأن

(٦) يبثون : ينشرون ، والبثُّ : النشر

لِمَعالي الأُمور ؛ حتى إذا تهيَّأ لهم ما يُريدون ، حَمَلُوا الحكومةَ ورجالَ الاستبداد بالأمر — من العُظماء والرُؤساء وأرباب النُفُوذ — على تَغْيير الحالةِ الاجتماعيَّة الفاسدة ، واستبدالِ غيرها بها . وبذلك تَزالُ البَرازخُ[1] التي تَحُولُ دون ترَقي الأُمة .

ومَتى تمَّ لهم ذلك ، أدركوا أنهم قدِ اجتازُوا[2] في سبيل الإصلاح عَقَبةً ليست بِشيء بالنِسبةِ إلى ما سَيعترِضُهم من العَقَبات ؛ لأنَّ إزالةَ الظُلم والاستبدادِ ، وتَغْييرَ نِظامِ الاجتماع ، لا يَكْفيانِ لرَفعِ الأُمة ، إن بَقيَتْ جاهلةً خاملةً ؛ فإنَّ جَهْلَ الأُمةِ أَشدُّ وطأةً[3] من ظُلْمِ الحُكُومة ، وإنَّ خُمولَها عقبةٌ كَؤُودٌ[4] في سبيل جَعْلِها أُمةً حيَّةً يُشارُ اليها بالبَنانِ[5] . وهذهِ العَقَبةُ أشدُّ اعتراضًا من عَقَبات المُستبدِّين ، ورجالِ الدِّين الجامدين .

ومتى أَدركَ النابغُونَ من الأُمة ذلك فكَّروا في الوسائل التي تُزيلُ حِجابَ الخمولِ والجهل عنها ، وما هي

---

(١) البرازخ : الحواجز ؛ والمفرد برزخ

(٢) اجتازوا : قطعوا

(٣) الوطأة : الشدة ، والضغطة ، والدوسة

(٤) العقبة : الطريق في الجبل . والعقبة الكؤود : الشاقة الصعبة المرتقى

(٥) البنان : الاصابع او اطرافها ؛ والمفرد بنانة

إلاَّ إيقادُ نيرانِ الثَّورةِ الأدبيَّة [1] ، التي تَلْتهِمُ [2] أخلاقَها الفاسدة ، وعاداتِها الضَّارَّة .

ولا دواءَ أنجعُ [3] في هذه الثَّورة من انتشار الجرائد الحُرَّة الصَّادقة ، التي لا تبيعُ الشَّرفَ والوِجدان بدُرَيهماتٍ يأكلها أصحابُها ظلماً وسُحتاً [4] . ومن ذلك أيضاً انتشار الكُتُبِ النافعة بينَ طبقاتِ الأُمة . وربَّما كان لها في بعض الأحايين تأثيرٌ عظيمٌ أشدُّ من تأثيرِ الجرائد .

فعلَى المُفكِّرين أن يُكثِروا من نَشر الكُتُب النافعة ، التي تُوقِظُ شُعورَ الأُمة ، وتُنَبِّهُها من هجَعاتِها ؛ وأن يَعضُدُوا الصَّحائفَ الوطنيَّة الصَّادقة ، والمجلاَّتِ المُفيدةَ النافعة ، وذلك بترغيبِ الأُمةِ فيها ، والسَّعي لتكثيرِ سوادِ من يبتاعُها [5] ؛ لِتَسيرَ الأُمة في سبيل المجد ، وتسلُكَ طريقَ السَّعادة .

فتنَبَّهوا ، رعاكُمُ اللهُ ، معشرَ النَّاشئين ، ولا تكونوا من الخاملين ، واقرءوا من الصُّحُفِ أشدَّها وطنيَّة ، ومن الكُتُبِ أسماها موضوعاً وأسلوباً ، تكونوا من السُّعداء .

---

(١) اقرأ العظة الآتية　　(٢) تلتهم : تبتلع

(٣) أنجع : أنفع

(٤) السحت : الحرام ، أو ما خبث وقبح من المكاسب فلزم عنه العار ، كالذي يؤخذ رشوة أو خداعاً أو نحوهما

(٥) السواد : الجماعة ، والعدد الكثير – ويبتاعها : يشتريها

الثورة الادبية

الأُمَمُ في حال مَرَضِها الاجتماعيِّ ، تكونُ حاجتُها الى إصلاح ما فَسَدَ فيها من الأخلاق ، وتقويمِ ما أعوجَّ من فُرُوع الاجتماع ، أكثرَ من حاجة المريض الى الدّواء .

يَمرَضُ إنسانٌ ، فيَلجأُ أهلُهُ وذَوُوهُ الى طبيب يثِقُون به ؛ فيَصِفُ له من الأدوية ما يراهُ مُفيداً له .

وتَمرَضُ الامة جمعاء ، إلاَّ مَن رحِمَ ربُّك ، فلا تلجأُ الى طبيب الاجتماع لِيُداويَ أمراضها ؛ ويُخَفِّفَ أوصابَها [1] ، ويُخلِّصها مما أصابها .

وذلك ناشيٌّ من أحد أمرين : إمَّا جَهلها بدائها ؛ فتظُنُّ — وهيَ على وَشك الموتِ بما يَفتُكُ فيها من الدّاء — أنها سليمةٌ من الأمراض ، نقيَّةٌ من الأوصاب ؛ وإمَّا أنَّها تدري كلَّ الدِّرايةِ ما فيها من الآلام ، وما يَعتورُها من الأدْواء [2] ؛ غيرَ أنَّها لا ثِقَـةَ لها بما يُحيطُ بها من الأطِبَّاء ؛

(١) الاوصاب : الامراض ؛ والمفرد وصب ، بفتح الواو والصاد

(٢) يعتورها : ينزل بها مرة بعد أخرى — والادواء : جمع داء

« ٤ »

أو أنها اعتراها[1] ما منعها التفكر في طلب الطبيب .

وترسل الأمة كثيراً من أبنائها الى مدارس الطب ، ليطبّوا[2] ، بعد تعلمهم ، أجسامها . ولا تبعث بأحد منهم ، إلا القليل النادر ، إلى مدارس الأخلاق والاجتماع ، ليداووا ، بعد تربيتهم ، أخلاقها ، ويهذبوا نظام اجتماعها . وما ذلك إلا من فساد النفوس ، التي تقدم الماديات على الأدبيات .

الامة في حاجة الى القسمين من هؤلاء المتعلمين ؛ ولكن حاجتها الى أطباء الاجتماع ، وحكماء الأخلاق ، أكثر من حاجتها الى من يداوي أجسامها .

إن مرضت الأمة مرضاً وبيلاً فتاكاً ، فذلك لا يقضي الا على حياة عشرة في الألف من مجموعها ؛ ثم يكون الداء دواء . وإن مرضت مرضاً اجتماعياً قضى مرضها على تسعة وتسعين في المئة . وأنتم ترون ، معشر الناشئين ، أن القضاء على حياة الافراد أسهل من القضاء على حياة المجموع .

وبعد ، فلا يمكن شعباً من الشعوب أن ينهض ، إلا

(١) اعتراها : أصابها

(٢) ليطبوا : ليداووا . طبه يطبه : داواه ؛ وهو من باب : شده يشده

إذا كان بينَ ظهرانَيهِ (١) من يُداوِي أخلاقه ، ويدفعه الى الترقي ، ويهيجُ منهُ عاطفةَ التنبّه ، ويُثيرُ فيهِ كامنَ المعالي (٢) :

وبقدرِ ما لديهِ من هؤلاء المداوين يكونُ مقدارُ تنبّهِهِ أو خمولِه .

الأممُ لا تنهضُ إلاّ بترقيةِ الأخلاقِ الفاضلة ، واستئصالِ (٣) كلِّ خُلُقٍ فاسدٍ من نفوسِها ، وتهذيبِ نظامِ اجتماعِها . ومتى تمَّ لها ذلك هانَ عليها كلُّ شيءٍ بعدَه : كتغييرِ أنظمتِها (٤) السياسيَّة والاقتصادية (٥) والعُمرانيّة .

ولا يُمكِنُها تنميةُ الأخلاقِ (٦) العالية ، وإصلاحُ ما اختلَّ من قواعدِ الاجتماع ، إلاّ بالثورة الأدبية ، التي يَهيجُها في نفوسِ الأمةِ أولئك المصلحون من أطبّاء الاجتماع ، والأخلاق ، رُوَيداً رُوَيداً ، حتى تستأصلَ شأفاتُ (٧)

---

(١) بين ظهرانيه : في وسطه

(٢) يهيج ويثير : يحرك — وكامن : مخفيّ

(٣) الاستئصال : قلع الشيء من اصله

(٤) الانظمة جمع نظام ، ويجمع أيضاً على أناظيم ونُظُم « بضم النون والظاء »

(٥) السياسة - علم تدبير أمور الدولة والرعية — والاقتصاد : علم تنمية الثروة

(٦) تنمية الاخلاق : تربيتها لتنمو نماء حسناً

(٧) الشأفات : الاصول ؛ والمفرد شأفة

الأخلاق الفاسدة، فيحلَّ محلَّها صالحُ العادات.

الثورةُ الأدبيةُ: قيامُ أفرادٍ من الأمة — حَسُنَت أخلاقهم، وصفَت سرائرهم، وزكَت أعراقهم [(١)] — ليُغيِّروا فيها حالتها الاجتماعية والخُلُقيَّة. فيَهيبون [(٢)] بها لتنهض؛ ويُثيرونها لتترُكَ ما ألِفَتْهُ من العادات الضارَّة، والأخلاقِ المنحطَّة. ولا يَزالون يَهيجون ويَتعَبون، ويَسعَون ويَنصَبون [(٣)]، حتى ينالوا ما يُريدون.

والشَّرطُ كلُّ الشَّرط، أن تكون البَداءةُ [(٤)] بذلك حسَبَ مُقتَضى الحال. حتى إذا استعدَّت الأمةُ لِما هو أرقى أفرغوا ما لدَيهم من جَعَباتِ الأفكار الصحيحة، وكِنانات [(٥)] الآراء الصائبة. وإلاّ كانت إثارتُها شرّاً من بقائها على حالتها القديمة.

ولْيكُنْ إقدامُهم على العمل كإقدام الطبيب على مُداواة المريض: لا يَصِفُ له الطعامَ، إلاّ بعدَ أن يَنالَ من الصِّحة مَنالاً يُمكِّنهُ من تناولِهِ. حتى إذا بلَغ أشُدَّهُ من الصِّحة،

---

(١) زكت: طابت — والاعراق: الاصول؛ والمفرد عِرق

(٢) يهيبون بها: يصرخون بها ويزجرونها

(٣) ينصبون: يتعبون

(٤) البداءة: الابتداء

(٥) الجعبة والكنانة: الوعاء؛ واصلها: الوعاء الذي تكون فيه السهام

جعلَهُ حرًّا في تناوُل مالا يَضُرُّ بالأَصِحَّاء . فَليَتَنبَّهْ الى ذلك المُرشدون المُصلِحون .

الأُمةُ في حاجة شديدة الى الثَّورة الأَدبيّة ، لإصلاح حالها ، والنُّهوضِ بها من وَهدة الانحطاط [١] . وأَنتم ، مَعشَرَ النَّاشئين ، أُولئكَ الأَطبَّاء الاجتماعيُّون . وسيكون بِيَدِكم أَمرُ الأمة . وسَتُوكَلُ إليكم إثارةُ أَفكارِها ، وبَثُّ [٢] الأَخلاقِ الصحيحة فيها .

فَكُونوا ، مُنذُ الآنَ ، رجالاً حازمين . وَضَعُوا نُصبَ [٣] عُيُونِكم أَنكم ستكونون إِطبَّاءَها النَّاصحين ، ومُرشديها المخلصين ، ووُعّاظها العاملين ، تَكُنْ لكم من الشاكرين .

ooooooooo

(١) الوهدة : الحفرة

(٢) البث : النشر

(٣) نصب عيونكم : امامها ؛ والنصب : الشيء المنصوب ؛ وهذا الشيء نصب عيني ، اي قائم في نظري

الامة والحكومة

شأنُ الأُمم شأنُ الأفراد: فالفَرْدُ المُعتمِدُ على غيرِه ـ لِيَكْفِيَهُ ما يحتاج اليه ـ هو فَرْدٌ ساقطٌ سافلٌ ضعيف؛ فكذلك الأُمةُ التي لا تُعْنَى بِشُؤُون نَفْسها [1]، ولا تَسْعَى في سبيل الجِدِّ ـ لتنالَ قَصَبَ ـ السَّبق هي أُمـةٌ مُنحطَّةٌ سافلة، ليسَتْ من الحُرِّيَّة في شيء؛ بل هيَ مُقَيَّدةٌ بسَلاسلِ العُبُوديَّةِ.

الحكومةُ تُريدُ من الأُمـةِ أن تكونَ قَيْدَ أوامرها، لا تَحِيدُ عن خُطَّتها، التي تَرْسُمها لها، قَدْرَ شِبْر. فإن لجَأَت الأُمةُ الى الحكومة، وطلبت مَعُونتَها في كلِّ أمرٍ من أُمورها، فلا بُدَّ أن تُقَيِّدَ نَفْسَها بِقُيُودها؛ وتَجريَ في حياتها الأجتماعيةِ والعِلْميَّة حَسَبَ رَغائبها. ولا ريبَ أَنَّ الحكومة إنما تُكَوِّنُ رجالاً يَصلُحُونَ لِخدْمتها؛ لا رجالاً يَصْلُحُونَ لأَن يَقُومُوا بما تحتاجُ اليه الأُمة. وإن نَبْغَ

---

(١) لا تعنى: لا تعتني

في مدارسها أو مصالحها رجالٌ شَعْبيونَ (١) — وذلكَ قليلٌ نادرٌ — فَهُم مِمَّن تعلَّموا الحياةَ الاجتماعيَّة الوطنيَّة من بيئتِهم (٢)، لا من أساتذتهم، ولا من الكُتُبِ التي وُضِعت لِتعليمهم.

فإذا أردنا أن نكون أمةً صالحةً راقية، فعلينا أن نَسْعَى لِترْقِية الأمة من طريق الأمة، لا من طريق الحكومة، بما نَبْذُله من الهِمَّة في تلك السَّبيل؛ كما هي الحالُ في الأُمم المُتَمدِنة اليوم؛ فإن هذه الأُمم تُؤَسِّسُ المدارس، وتُنْشِئ المَعامل والمَصانع (٣)، من غير أن تَطْلُبَ من حكوماتها أن تمُدَّ اليها يدَ المَعُونة. ولو فعلَت ذلك لظلَّت مُتأخرة كما ظَلِلْنا.

أيةُ أُمةٍ اعتَمدت في إنجاح مَقاصِدها على الحكومة، فهيَ عالةٌ عليها (٤)، مَغلولةٌ بأغلالها (٥). ومتى كانت الأُمةُ مُقيَّدةً مُحتاجة الى غيرها فليست بأمة حُرَّة. وإذا كانت غيرَ حُرَّةٍ، فمِن أينَ لها أن ترقى !؟ وأنَّى لها أن تَنهَضَ !؟

---

(١) شعبيون : يعملون لحياة الشعب

(٢) من بيئتهم : من محيطهم الذي فيه يعيشون

(٣) المصانع : جمع مصنع ، وهو دار الصناعة

(٤) العالة : العيال ؛ والمفرد عيل (بفتح العين وتشديد الياء المكسورة) وهو من تجب النفقة عليه من زوجة وولد واتباع

(٥) مغلولة : مقيدة — والاغلال : القيود

الحكومةُ جُزءٌ من الأُمــة اُختصَّ بأعمالٍ خاصّة . وهو يستمدُّ دائماً قوَّتهُ منها ، وعليها يعتمدُ في كلّ شأنٍ من الشؤون ، لأنّ القليلَ يعتمدُ على الكثير ، وما سمِعنا أنّ كثيراً اُعتمدَ على قليل ، إلاّ إذا كان ضعيفاً خاملاً جباناً .

إن أرادت الأُمة أن تكون لها حكومة صالحةٌ راقية ، فعليها أن تَصلُحَ هِيَ أوّلاً ، وتَنهَضَ للأخذ بأسباب التّرقي والفَلاح . حتى إذا ما صلحَتْ وترقّت ، ترقّت معها الحكومةُ ؛ لأنّ الجُزءَ تابعٌ للكلّ ؛ ولأنّ الحكومة هي صُورةُ الأُمة ومِرآتُها . فإن كانت الأُمــةُ صالحةً فهي صالحة ، والعكسُ بالعكس . فلَوْ فرَضنا صلاحَ الحكومـةِ وفسادَ الأُمة ، لا تَلبَثُ الحكومةُ أن تَفسُد . وإن كانت الأُمةُ صالحةً والحكومةُ فاسدة ، فلا تَمكُثُ هــذهِ أن تَصلُحَ وتَتّبعَ الأُمة في سَيرها .

وخُلاصةُ القول أنّ الحكومه تابعةٌ للأُمةِ رُقياً وانحطاطاً ، وعِلماً وجهلاً ، وصلاحاً وفساداً . فعلَينا أن لا نَعتمدَ إلاّ على أنفُسنا ، ولا نأمُلَ إلاّ ما نَبذُلُهُ من الجِدّ والهِمّةِ . هذا ، إذا أردنا أن نكون قوماً صالحين ، لتكونَ لنا حكومةٌ صالحة .

فإليكم أبسطُ يدَ الرَّجاء، أيُّها النَّاشئُونَ، أن تجعَلُوا هدَفَكُم[1] خدمةَ الأمــة خدمةً صادقة، والسَّعيَ في إنجاحها وتَرقيتها؛ حتى يَعُودَ اليها مَجدُها الدَّاثر[2]، وشرَفُها الغابر[3]؛ فَتَكُونَ حكومةً تُناسِبُها رُقياً اجتماعياً وعِلمياً واقتصادياً وعُمرانياً. وبذلك تكونون وَطنيِّينَ حقاً.

حقَّقَ اللهُ فِيكُمُ الرَّجاءَ؛ وحاطكم بعصمته وتوفيقهِ؛ إنَّهُ سميعُ الدُّعاء.

---

(١) الهدف : الغرض الذي يوضع ليرمى اليه

(٢) الداثر : البالي الممحوّ

(٣) الغابر : الماضي

الغرور [١]

ضِعافُ النفوسِ يَرَوْنَ في أنفسهم مالا يَراهُ غيرُهم فيها : يَرَوْنَ أَنَّهم عُظَماءُ ، وليس لهم من أسبابها [٢] نَقِيرٌ ولا قِطْمِيرٌ [٣] .

وَيَرَوْنَ أنهم عُلَماءُ ، والجهلُ قد خَيَّم على نُفُوسهم ، كالضَّباب في يومٍ داجنٍ [٤] ، أَلبسَ الأرضَ وأقطارَ السَّماء أرديةَ العَماء [٥] .

وَيَرَوْنَ أنهم أناسِيُّ [٦] ، والمَلَكاتُ [٧] الحيوانيَّةُ قد مَلَكَت أَعِنَّةَ نُفُوسِهم [٨] ، وأخذت بأَزِمَّة أفئدتِهم [٩] ، وَسيطرت على طِباعهم ، وتَرَكت سِباعَ شهواتِهم تفترِسُ

---

(١) الغرور : ان يرى الانسان في نفسه من الفضائل ما ليس فيها

(٢) الضمير في اسبابها يعود الى العظمة المفهومة من العظماء

(٣) النقير : النقرة في ظهر بزرة التمر ونحوه — والقطمير : القشرة الرقيقة بين البزرة والتمرة ، ليس له نقير ولا قطمير : ليس له شيء

(٤) الضباب : السحاب يغطي الارض كالدخان — ويوم داجن : كثير الغيام

(٥) أقطار السماء : نواحيها وجوانبها — والاردية : جمع رداء — والعماء : السحاب الكثيف

(٦) الاناسيّ : الناس ، والمفرد انسان

(٧) الملكات : جمع ملكة ، وهي الصفة الراسخة في النفس

(٨) الاعنة : جمع عنان ، وهو سير اللجام الذي تمسك به الدابة

(٩) الازمة : جمع زمام وهو العنان — والافئدة : القلوب ، ومفردها فؤاد

عقولهم ، وتمزق رداء إنسانيتهم . فهم في الضلال يهيمون [١] ، وفي ظلمات الفسوق والعصيان يتسكعون [٢] .

وما ذلك كله إلا من غرور النفس وطمعها بالباطل . وهو خلق سافل ، يودي بما في النفوس من ذماء الفضيلة [٣] ، ويقضي على ما فيها من أمل السعادة ، ويمحو ما لأصحابها من بقية الحرمة في نفوس العقلاء .

ومما يؤثر في النفس تأثيراً غير صالح ، أن طائفة من الشبان — الذين هم عماد الأمة ، ودعامة حياتها القابلة ، وركن سعادتها في الآتي — قد أصابهم نصيب وافر من هذا الخلق — خلق الغرور الغرور [٤] — ، ومرنوا على هذه العادة [٥] ، حتى صارت لهم طبيعة يصعب استئصالها [٦] ؛ لأنها استأصلت في نفوسهم [٧] ، وتمكنت جذورها من قلوبهم [٨] . فنفرت منهم ، بسبب ذلك ، الأمة ، ، وجفاهم من كان منهم قريباً ، واجتواهم من كان لهم صديقاً حميماً [٩] .

---

(١) يهيمون : يذهبون لا يدرون أين يتوجهون

(٢) يتسكعون : يتخبطون لا يهتدون لوجهتهم

(٣) يودي به : يهلكه ويذهبه — والذماء : بقية الروح

(٤) الغرور بفتح الغين : ما يغر الانسان ويدفعه الى الباطل

(٥) مرنوا : اعتادوا (٦) استئصالها : نزعها

(٧) استأصلت : ثبتت اصولها وتمكنت

(٨) جذورها : أصولها

(٩) اجتواهم : كرههم — والحميم : الصديق كل الصديق

يدرس أحدهم من العلم مسائل قليلة لم يتقن درسها ، ولم يحكم[1] فهمها ؛ فيريك أنه علامة الزمان ، وفيلسوف الوقت .

ويقرأ قليلاً من الأدب أو التاريخ ، فيضع نفسه موضع كبار الأدباء .

وينظم كلاماً على وزان البحور المعلومة ، أو يكتب سطوراً ينشرها في الجرائد ، وليس في نظمه شيء من الشعر ، ولا في كتابته مغزى تصبو إليه النفس[2] . وأكثر ما يسميه شعراً أو أنشاء ، يفيض خطأ معنوياً أو لفظياً ، أو يكون مملوءاً منهما معاً ؛ وهو — مع هذا — يدعي ، غير خجل ، أنه أكتب كتاب العصر ، وأشعر شعراء الزمان . لا يطاوله[3] في ذلك مطاول ، ولا يناز له منازل .

ويتصدر قوم في المجالس العامة والندوات الخاصة[4] ، فيتكلمون في كل موضوع ، ويهيمون في كل واد . فتارة تراهم محلقين في السماء ، وطوراً غائرين في بطون الأرض ، وآونة يبحثون في تاريخ الأمم ، ما مضى منها وما حضر ؛ ثم ينتقلون من ذلك الى علوم الأدب وتاريخها ، ثم الى علوم

---

(١) لم يحكم : لم يتقن (٢) تصبو : تميل

(٣) لا يطاوله : لا يفاخره

(٤) الندوات : جمع ندوة وهي المجلس

الدِّين و تفاريعها ، ثم الى الفلسفة بأقسامها ؛ فيَخبِطُون في كل ذلك خَبطَ عَشواءَ [١] ، في ليلةٍ عَمياء ، ليقولَ النَّاسُ إنهم عُلَماء .

وترى شِرذِمةً من الأَنانِيِّين [٢] ، قدَمُها في الماء ، وأَنفُها في السَّماء ، وهي حُثالةُ السُّفَهاء [٣] ، تَختال [٤] اختيالَ الجَبابرة [٥] ، وتَبطُشُ بطشَ القَساوِرة [٦] ، وتَجلِسُ جِلسةَ الأَكاسرة [٧] ، وتَمشي مِشيةَ القَياصرة [٨] ؛ وهي لا في العِيرِ ولا في النَّفيرِ [٩] .

وإن سألتَ أحدَ هؤُلاء الأَنانِيِّين عن سَبَب هذه الكِبرِياء ، أجابك : انَّ هــذا من الإِباء [١٠] . وما الإِباء ، لو يَعلَم ، إلا

---

(١) خبط خبط عشواء : مثل يضرب لمن يتصرف في الامور على غير بصيرة — والعشواء : الناقة التي لا تبصر ليلاً

(٢) الاناني : الذي لا يرى غير نفسه ، فهو يقول : أنا أنا

(٣) الحثالة : سفلة الناس ؛ وأصل معناها : ما يخرج من قشر الشعير ونحوه

(٤) تختال : تمشي مشية الخيلاء والعجب والكبر

(٥) الجبابرة : جمع جبّار ، وهو القهّار ، والمتعالي عن قبول الحق ، ومن يجبر نقيصته بادّعاء منزلة من التعالي لا يستحقها ، وهذا لا يقال الاّ على طريق الذم . واما الجبار في صفة الله سبحانه فهو صفة مدح ، لانه القاهر فوق عباده ، يسيرهم بحسب مشيئته وارادته

(٦) القساورة : الاسود ؛ والمفرد قسورة

(٧) الاكاسرة : جمع كسرى ، وهو لقب لكل من ملك الفُرس

(٨) القياصرة : جمع قيصر ، وهو لقب لكل من ملك الروم

(٩) العير : القافلة من الدواب تحمل الميرة — والنفير : القيام العام لقتال العدو . وقولهم : « هو لا في العير ولا في النفير » : مثل يضرب لمن يحطّ أمره ، ويصغر قدره ، ولا يصلح لمهم

(١٠) الإباء : الامتناع مما يشين

تطهيرُ النَّفسِ من الأدناس[١]، وتنزيها عن الأرجاس[٢]، وحملها على معالي الأمورِ لتأبى الضَّيم[٣]؛ فلا تقيمُ على الخسف[٤]، ولا ترضى بالذلّ، ولا تميلُ الى شائن الأفعال؛ بل تأخذُ بزمامِ صالحِ الأعمال، وتسيرُ في مناهج[٥] فاضلِ الأخلاق.

إنّ عملَ تلكَ الشرذمةِ لهوَ من صِغرِ النفوس، ولؤمِ الطِباع، وخفّةِ الأحلام[٦]، ودناءةِ التربية، والتمسّك بالأوهام.

فأُعيذكَ، أيها النشءُ الصالحُ، من الغرور؛ فإنّهُ يسوقُ الى هذه الأمور، ويزيّنُ لك تلكَ الأعمالَ الدنيئة، ويحملكَ على مركبِ الهوان.

اعرفْ حدّكَ، واسعَ لِما هو فوقه، بما تبذلهُ من الجدّ والعمل واكتساب الفضائل. فرحمَ اللهُ امرءًا عرفَ حدَّهُ فوقفَ عندَه.

أخذَ اللهُ بيدِك، وأزاحَ عن قلبك الغشاوة[٧]، وهداكَ أقوم طريق.

---

(١) الادناس: الاوساخ؛ والمفرد دنس، بفتح الدال والنون

(٢) الارجاس: الانجاس؛ والمفرد رجس، بكسر الراء وسكون الجيم

(٣) الضيم: القهر والظلم والذل

(٤) الخسف: تحمّل ما يكره، والنقيصة، والذل

(٥) المناهج: جمع منهج وهو الطريق الواضح

(٦) الاحلام: العقول ومفردها حِلم، بكسر الحاء وسكون اللام

(٧) الغشاوة: الغطاء

التجدد

التَّجَدُّدُ هو الحياة . وهو سُنَّةٌ[1] عامةٌ في كلِّ حيٍّ .

الأَجسامُ الحيَّةُ تتجدَّدُ في كل مُدَّةٍ معلومة . فتفنى ذرَّاتها ، التي لم تبقَ صالحةً للبقاء ؛ وينشأُ غيرُها مِمَّا هوَ قابلٌ للحياة . ولولا هذا التَّجدُّدُ ، لما أمكنها أن تحيا أكثرَ من عَشرِ سِنين . ثمَّ تُكتَبُ بعدَها في سِفرِ الفناء[2] .

إنَّ الموتَ هو طاريٌّ على الأَجسام يَمنَعُ تجَدُّدَها . فهو قد يكونُ ضعيفاً ؛ فيعملُ على مَنعِ التَّجدُّدِ تدريجاً ؛ حتى أذا أُستَحكَمت جراثيمُهُ[3] بلَغَت ما تريد . وقد يكون قوياً ، فيكونُ منه الموتُ الفُجائيُّ ، الذي يَقضِي على نَسَمات[4] التَّجدُّدِ قضاءً سريعاً .

وهذا هو الشأنُ في النَّبات أيضاً ؛ فإنَّهُ من الأَجسام

---

(١) السنة : الطبيعة

(٢) السفر : الكتاب ، والجمع أسفار

(٣) استحكمت : تمكنت — والجراثيم : الاصول ، وتطلق اليوم على مايسمى المكروب

(٤) النسمات : الانفاس ، جمع نسمة ، وهي نفس الروح

ذوات الحياة . فالبُستانُ الذي يَتعهَّدُهُ مِحراثُ الحارثِ[1] ، وتعملُ فيه يدُ الباحث ؛ فتقلِّبُ أرضَهُ ، وتَسقِي أغراسَهُ ، وتُشذِّبُ أغصانَهُ[2] ، وتُنقِّي تُربَتَهُ من الحشراتِ الضَّارة والنَّباتات الفاسدة ، تَسري فيه رُوحُ التَّجدُّد ؛ فيُؤتي أُكُلَهُ موفوراً[3] ، ويُفيضُ على أصحابه من الثَّمراتِ أشهاها ، ومن الفاكِهة أطيبَها .

والبُستانُ الذي يُهمِلُهُ البُستانيُّ — فلا يَفلَحُهُ ، ولا يَسقيهِ ، ولا يَتعهَّدُهُ بالحِيطة[4] ، ولا يَنفِي عنهُ ما يَضُرُّ به من حشَراتٍ ونَبات ، ولا يَمُدُّ اليه مِنجَلَ التَّطهير — تَمرَضُ تُربتُهُ ، فلا تَقوَى على الإنبات ، وتَضعُفُ أشجارُهُ ، فلا تستطيعُ الثَّبات ، وتَذبُلُ أغصانُه ، فلا تَجُودُ بالثَّمرات .

وما ذلك إلاَّ لفَقدِ أسباب التَّجدُّدِ . والتَّجدُّدُ سِرُّ البقاء .

الأُمةُ هي الاشجارُ في بُستان الحياة ، ومُرشِدُوها هُم

---

(١) يتعهده : يتفقده — والمحراث : السكة التي تحرث بها الارض أي : تشق بها — والحارث : الزارع ؛ والجمع حُرَّاث

(٢) تشذب اغصانه : تصلحها بقطع شَذَبها ، وهو ما تفرق من عيدانها مما لم يكن صالحاً

(٣) موفوراً : تاماً

(٤) الحيطة : الحفظ والتفقد

الحرّاث . فإن أهملوا شأنَ تربيتها – فتركوا أمرَ تعليمها ، ولم يرقّوا عقولها ، ولم يهذّبوا أخلاقها ، ولم ينهوا عنها ما يطرأ عليها من فاسد العادات وضارّ الأخلاق ، ولم يتعهّدوها بما يحدث من جديد المحارث ، وحديث الوسائل المحيية ، ولم يهيبوا بها[1] لتنهض وتحيا حياةً سعيدةً – كانت عاقبتها الخمولَ ، فالذبولَ ، فاليبسَ ، فالاستئصالَ من بستان الحياة[2] .

التجدّدُ يكونُ في المعقولات ، كما يكونُ في المحسوسات .

فإذا كانت الأجسام الحيّةُ محتاجةً الى التجدّدِ – لتحافظَ على حياتها – فكذلك معنويّاتُ الأمة ، يجبُ أن تتجدّد بتجدّد حاجاتها .

وإن كان البستان – وإن بالغَ البستانيُّ بتعهّدهِ وتجويدهِ – لا بدَّ أن يظهر بين نباتهِ الطيّبِ نباتٌ فاسدٌ وحشراتٌ ضارّةٌ ، فكذلك الأخلاقُ والعاداتُ ، لا تلبثُ أن يندسَّ فيها[3] من الأوضار ما يشوّهُ محاسنها[4] ، ويفسدُ صالحها .

---

(١) اهاب به يهيب : صرخ به وزجره

(٢) الاستئصال . القلع والنزع

(٣) يندس : يدخل ويندفن

(٤) الاوضار : الاوساخ ؛ والمراد بها الاخلاق الفاسدة ؛ والمفرد وضر (بفتح الواو والضاد) – ويشوه : يقبح

فالبُستانيُّ لا يَجُوزُ لهُ أَن يُهمِل ذلك النَّباتَ الفاسد ، ولا تلك الحشَرةَ الخبيثة ، كيلا تُفسِدَ النَّباتَ كلَّه .

والأمةُ يَجبُ أَن تَتنبَّهَ لكلِّ خُلُقٍ خلِيقٍ بالرَّفضِ[1] ، وكلِّ عادةٍ جديرةٍ بالطَّرْح ؛ فَتعملَ على مَحْوِهِما ؛ حتى لا يَتعدَّى ضررُهُما الى فاضل الأخلاق وحسنِ العادات .

التَّجدُّدُ سُنَّةٌ طبيعيَّةٌ إِلَهيَّةٌ ؛ لذلك كان اللهُ سُبحانَهُ يُرسِلُ الرُّسلَ ، الواحدَ إِثْرَ الواحد ، حتى يُجدِّدَ اللاَّحِقُ مَعالِمَ ما جاءَ به السَّابق[2] ؛ معَ زياداتٍ تَقتَضيها الحالُ ، وتدْعو اليها الحاجة . والى ذلك الإشارةُ في الحديثِ : « يَبعَثُ الله على رأسِ كلِّ مِئَةِ عامٍ من يُجدِّدُ لهذه الأمةِ أمرَ دِينها » .

متى سرَتْ رُوحُ التَّجدُّد في الأمة ، تَثُورُ[3] على ما فَسَدَ من أَخلاقها ، وتَهِيجُ على ما اُختَلَّ من أَنظِمتها[4] ،

---

(١) خليق : جدير

(٢) المعالم : الآثار ؛ والمفرد مَعلم

(٣) تثور : تهيج وتتحرك

(٤) الانظمة : القوانين التي توضع لتسيير الأمة في سبيلها ؛ والمفرد نظام . والنظام في الاصل : قوام الامر الذي به يقوم . وأصل معناه : الخيط الذي يُنظم فيه اللؤلؤ

وتَنفضي على ما شاخَ من عاداتها [1] ، حتى تَرْجِعَ [2] ذلك كُلَّهُ يَتهادى في مطارفِ الشَّباب [3] ، ويَخطِرُ في حُلَلِ الكمال .

إنَّ الأُمةَ ، أيُّها النَّشْءُ الصَّالح ، في الحاجة القُصْوى إلى التَّجَدُّد . فقد اشتَعلت رُؤوسُ عاداتِها وأخلاقِها وأنظمتِها ولُغتِها وسائرِ مُقوِّماتِها شَيْبًا .

فانْهَضْ ، رَعاكَ اللهُ وحاطَكَ بِمَعُونَته ، بِأُمَّتِكَ ، بما تَبُثُّهُ فيها من رُوحِ التَّجدُّد ؛ فإنَّ التَّجدُّدَ سِرُّ الحياة .

---

(١) شاخ : هرم وبلي

(٢) رجعه يرجعه : اعاده ، وارجعه لغة غير فصيحة

(٣) يتهادى : يتبختر — والمطارف : ثياب من الحرير مربعة لها اعلام ؛ والمفرد مطرف

الترف [1]

ما وجدَ الترَفُ سبيلاً الى نُفُوس أمةٍ إلاّ أفسدها ، وجعلَ عاليَ سعادتِها سافلَها ، وبدّدَ ما لديها من ثروة [2] ، وأسقط مالها من رفعة ، ودمّرَ ما عندَها من عُمْران [3] .

المُترَفون [4] في كل أمةٍ تَفسُدُ أخلاقُهم ، بما يكثُرُ لديهم من دواعي التنعّم ، وما يُحيطُ بهم من أسباب الفُسُوق عن سُنَنِ الله [5] .

الترَفُ يسُوقُ الى السَّرَف ؛ والسَّرَفُ داعِيةُ التَّلَف . فالمُترَفون ضُعفاءُ العُقول ، ضُعَفاءُ الجُسوم ، ضُعَفاءُ الإِرادة ، خاملو الأذهان ؛ لا يَعرِفون للحياة معنى ، سوى ما تَسُوقُهم اليه الشَّهواتُ الحيوانيَّةُ ، وتدفَعهم اليه اللذّاتُ البهيميَّة . فلا يَسْعَوْنَ لِما يُفيدُ الأمة ، ولا يُفكّرون فيما يَعمُرُ البلاد . فالمعروفُ عندَهم منكور ؛ والمنكورُ مشهور ؛ والخيرُ مقبور ؛

(١) الترف : التوسع في التنعم . يقال : أترفته النعمة ، أي : اطغته وأبطرته

(٢) بدد : اذهب وفرّق

(٣) دمر : قوّض وهدّم

(٤) المترفون : المتنعمون

(٥) الفسوق : الخروج والعدول عن الامر ، والعمل المنكر

والشَّرُّ منشور . فإن دَعَوْتَهم لتخفيف مُصاب الأشقياء [1] ، وتجفيف دمعة الفُقراء ، وبَذْل المال لتعليم الجُهلاء ، غَصَّت حُلوقهم ، وشَرِقُوا بريقهم ، وأمالوا أعناقهم ، ولوَّوا رؤوسهم [2] . وإن طُلبوا لبَذْل الأموال في سافل الأفعال ، استَبَقُوا مُلَبِّين ، وأَقدَموا مُسرعين ، وأجابوا الدّاعين ، كأنَّهمُ السَّهْمُ المُرسَل ، أو القضاءُ المُنْزَل .

ما من فسادٍ يَنتشِرُ في الأُمة ، ألاَّ كان هؤلاء المُترَفون مَنشَأَهُ . وما من بَلِيَّةٍ تَحُلُّ بها ، إلاَّ كانوا جراثيم أوبائها [3] . وما من فُسوقٍ إلاَّ كانوا عِمادَهُ وذِرْوَةَ سَنامهِ [4] .

إنَّ النُّفوسَ لَتضرَى بالشَّهواتِ [5] حتى تَستَحوذَ عليها [6] ؛ فلا تَترُكُ فيها مَنفَذاً إلاَّ وَلَجَتْهُ [7] ، ولا مُتَّسعاً إلاَّ مَلأَتْهُ . وما ذلك إلاَّ من التَّرفِ ؛ فإنَّه يَدعو إلى التَّبَسُّطِ

---

(١) الاشقياء : جمع شقي وهو البائس المحتاج

(٢) لوّوا رؤوسهم : أمالوها وأداروها

(٣) الاوباء : الامراض والمفرد وبأ ؛ وأما الوباء فجمعه اوبئة

(٤) ذروة كل شيء : أعلاه — والسنام في الاصل : ما ارتفع من ظهر الجمل ؛ والجمع أسنمة

(٥) تضرى بالشهوات : تُولع بها حتى تعتادها

(٦) تستحوذ عليها : تستولي عليها

(٧) ولجته : دخلته

في الملذّات[١] ، وإعطاء النَّفسِ الأمّارة هواها ، وإجابة ميولها .
ومتى لهت الامة بأهوائها[٢] ، واشتغلت بشهواتها ، وعبثت بمرافقها[٣] ، وغفلت عن مقوّمات حياتها ؛ أسرع إليها الفساد ، وعمّها البلاء ، وحاطتها الأرزاء[٤]

عُج بطرفك[٥] نحو الأمم الخالية ، تجد أن الترف قد قضى عليها ، حتى جعلها عبرة لمن يأتي بعدها .

هذه الأمة الرّومانيّة ، والأمة الفارسيّة ، والأمة العربية ؛ فإنّها ، بعد أن كانت في ذرا المجد والسّعادة ، قد هوى بها التّرف إلى مكان سحيق[٦] ، ونزل بها التّبسّط في هوى النفس الى الحضيض[٧] . وربّما كان هذا السّبب ممزوجاً بغيره من الأسباب التي تدعو الى الانحلال ؛ ولكنّه السّبب الأوّل ، الذي يجرُّ وراءه غيره من الأسباب .

وقس على هذه الأمم غيرها من الأمم الماضية ؛ وابحث تجد أنّ هذه العلّة هي جرثومة الجرائم ، وعلّة العلل .

(١) التبسط : الاجتراء وترك الاحتشام
(٢) الاهواء : جمع هوى النفس
(٣) عبثت : هزأت واستخفت ولعبت — والمرافق : المنافع والمصالح
(٤) الارزاء : المصائب ؛ والمفرد رزء
(٥) عج بطرفك : اعطفه وأدره
(٦) سحيق : بعيد
(٧) الحضيض : الارض ، وأسفل الجبل

قارِنِ اليومَ بينَ أخلاقِ أهلِ البادِيةِ وأخلاقِ سُكّانِ الحواضرِ ؛ وقايِسْ بينَ جُسومِ هؤلاءِ وجُسومِ أولئك ؛ ثمَّ أنظُرْ الى ماعندَ البادِينَ (١) من شرفِ النَّفسِ ، والوفاءِ ، والعِفَّةِ ، والكَرَمِ ، والشَّجاعةِ ، وغيرِها من الأخلاقِ الفاضلةِ ، وإلى ما عند هؤلاءِ المُتَمدِّنينَ من أضدادِها ؛ وأحكُمْ بعدَ ذلك على مايَجُرُّهُ التَّرَفُ على الإنسانِ من الأمراضِ في الأخلاقِ والأجسامِ .

نحن لا ندعو الى البَداوة . ولكنْ ندعو إلى التخلُّق بأخلاقِ أهلها ؛ ونُهيبُ (٢) بِمَن يُسَمِّي نفسَهُ إنساناً أن يُقلِعَ عن سافلِ العاداتِ ، ويَتَجنَّبَ سفيهَ الأخلاقِ ، ويبتعدَ عن التَّرَفِ ؛ فهوَ يَجرُفُ الفضائلَ ، ويُبقِي على الرَّذائلِ ، وأن يكونَ بينَ ذلك وسطاً ، كيلا يكونَ أمرُهُ فُرُطاً (٣) .

فتَنَبَّهُوا ، أيها النَّاشئونَ ، الى ما يُحيطُ بِكُم من سِباعِ المَلَذّاتِ ، وما يَحوطُكُم من ضَواري الشَّهَواتِ (٤) . ولا تَتَخَلَّقُوا بأخلاقِ المُترَفِينَ . ولا تَسيرُوا سَيرَ العادينَ (٥) ؛ كيلا تُكتَبُوا في الذاهبين . وفي هذا بصائرُ (٦) لكم إن كُنتم مُبصِرِينَ .

---

(١) البادي : يسكن البادية

(٢) نهيب : ننادي ونصرخ

(٣) امرٌ فُرُط : مجاوز الحد

(٤) الضواري : الحيوانات المفترسة كالذئب والاسد ونحوهما

(٥) العادي : المجاوز الحد في اعماله

(٦) البصائر : العبر والشواهد ؛ والمفرد بصيرة

الدين

حقٌّ العَلاءُ[1] لأنْفُسٍ طَهُرَتْ ،
عنهـا تَناءَى الفُحْشُ والفَنَدُ[2] ،
لَبِسَتْ دِثارَ العِلْمِ ، وادَّرَعَتْ[3]
بالدِّينِ ؛ فهوَ لِمَجدِها عَمَدُ .
فالدِّينُ ، لولاهُ لَمَا انقَطَعَتْ
عن عَقْلِ هذا العالَمِ العُقَدُ ،
ولَمَا استقامَ لأمرِهِمْ عِوَجٌ ،
ولَمَا أُقِيمَ لِمَيْلِهِم أَوَدُ[4] ،
ولأنجَدُوا ، يَعْلُوهُمُ غَطَشٌ ،
ولأتْهَمُوا يَجْفُوهُمُ الرَّشَدُ[5] .

---

(١) حق : ثبت ووجب — والعلاء : الشرف والرفعة

(٢) الفحش : المنطق الفاسد القبيح — والفند : الكذب ، والظلم ، وكفر النعمة

(٣) الدثار : الثوب — وادرعت بالدين : اتخذته درعاً لها

(٤) الاود : الاعوجاج

(٥) انجدوا : اتوا نجداً — والغطش : الظلام — واتهموا : جاءوا تهامة . ونجد وتهامة من بلاد العرب . فنجد اراضيها مرتفعة ، وتهامة اراضيها منخفضة . والمراد بالانجاد والاتهام هنا : السير على اختلاف انواعه

الدِّينُ الصحيحُ نِبْراسُ المَدَنِيَّةِ (١) ؛ والعملُ به رائدُ الإِنسانيَّةِ (٢) .

الدِّينُ وضعٌ إلهيٌّ ؛ وحاشَ للهِ أن يأمُرَ عِبادَهُ بما يُقعِدُهم عن العملِ الصالحِ ، ويَصدِفُهم عن المعيشةِ الرَّاضيةِ (٣) .

فالمَدَنيَّةُ الصحيحةُ هي الدِّينُ الصَّحيحُ . فإن لم يكن كُلٌّ منهما عينَ الآخرِ ، فهُما شقيقانِ ؛ أَبُوهُما الحقُّ ، وأُمُّهُما الحقيقةُ .

ما أسعدَ النَّاسَ إلاَّ الدِّينُ ؛ وما أشقاهم إلاَّ تَرْكُهُ ، أو التَّمسُّكُ بقُشُورِهِ وإهمالُ لُبابِهِ .

الدِّينُ سيفٌ ذو حدَّين . فإن أحسنَ المُنْتَسِبُ اليه استعمالَه كان له عونًا في الشدائدِ ، ومُرشِداً في الفَلَواتِ (٤) ، ومصباحاً في الظُّلُماتِ . وإن أساءَ انتضاءَهُ (٥) ضرَّ بهِ وبغيرِهِ .

وإنَّ ما نَراهُ من شَقاءِ كثيرٍ من المُتَدَيِّنينَ ، إنْ هوَ ناشئٌ إلاَّ من جهلِهم بالدِّينِ ، وبُعْدِهم عن جَوهرِهِ النَّقيِّ ، الخالي عن الشَّوائبِ (٦) ، المُنَزَّهِ عمَّا دَسَّهُ فيه الدَّسَّاسونَ (٧) ؛

---

(١) النبراس : المصباح يستضاء به

(٢) رائد : مرشد

(٣) يصدفهم : يصرفهم ويمنعهم

(٤) الفلوات : جمع فلاة ، وهي القفر ، والصحراء الواسعة

(٥) انتضاء السيف : تجريده من قرابه

(٦) الشوائب : العيوب ، والادناس ، والاخلاط

(٧) دسه : ادخله

وعن أعمالِ من لا يَعرِفونَ منه إلاَّ الأسمَ وبعضَ الأعمال الظاهرة ؛ وعن أغراض الذين اتخذوه ملعبًا لأهوائهم ، ومَركبًا لسافل مقاصدهم .

الدِّينُ اليومَ شَبحٌ لا رُوحَ لهُ ، وألفاظٌ أضاعَ النَّاسُ معناها . وقد أتخذهُ المُتَلَبِّسُون به حِبالةً [1] لاصطياد عُقُولِ العامَّه ، ووسيلةً لِتَعْظيمِها إيّاهم ، وإتراعِ حقائبِهم من أموالها [2] . وهُم ليسُوا من الدين في شيء . بل هُناك جهلٌ مُطْبِق ، وأَخلاقٌ وَضيعة ، ونُفُوسٌ ضعيفة ، ونُفُورٌ من صالح الأعمال ، وبُعْدٌ عن هدَف الحقيقة [3] . وأكثرُهم عبدَةُ أوهام ، وسدَنَةُ تقاليد [4] ، وأجراء أهواء .

إنَّ العامَّةَ غيرُ مَلُومَةٍ إنِ أعتقدت مالا أصلَ لهُ في الدِّين . وإنَّما المَلُومُ أُولئك الذينَ يُسَمُّونَ أنفُسَهم خاصَّةً ؛ وهم يَدُسُّونَ في نُفُوس العامَّةِ مالا يَتَّفِقُ مع الشَّرْع ؛ ويَنشُرُونَ فيهم من الإفْك [5] ما يُسمُّون به العُقول ، ويُوَسِّعُ مسافةَ الخُلْفِ بينَ أبناء الوطن الواحد .

---

(١) الحبالة : شبكة الصياد

(٢) الاتراع : الاملاء — والحقائب : جمع حقيبة وهي خريطة يعلقها المسافر في الرحل لزاد ونحوه

(٣) الهدف : الغرض الذي يوضع ليرمى اليه

(٤) السدنة : جمع سادن ، وهو خادم الصنم

(٥) الافك : أشد الكذب

ضَرَرُ الدينِ من رَجُلَين : رَجُلٍ

ظَنَّ دينَ اللهِ في تَرْكِ الدُّنى[1] ،
ورأى الإعراضَ عنها أنفعا .
وَهوَ ، لو جاءَتهُ منها بَدْرةٌ[2]
طلَّقَ التَّقوَى ، وعافَ الوَرَعا[3] .
فَهوَ لا زُهداً بِها عنها نأى[4] ؛
لكنِ الجِدُّ يُذيبُ الأضْلُعا ؛
خافَ أن يَسعَى ، فَيُدْمِي رِجلَهُ ؛
فرأى الرّاحةَ فيما صَنعا .
ليسَ بالزّاهد في الدُّنيا أمرُؤٌ
يَلْبَسُ الصُّوفَ ، ويَهوَى الرُّقَعا[5] ؛
إنَّما الزّاهدُ في الدُّنيا أمرُؤٌ
عفَّ نفساً ، فأبَى أن يَخنَعا[6] .

وَرُجلٍ يَدعو إلى باطلٍ بأسمهِ ؛ ويُكَفِّرُ سِواهُ ،

---

(١) الدنا جمع الدنيا ؛ وانما جمعت مع انها واحدة لاعتبار اقسامها ومظاهرها

(٢) البدرة : عشرة آلاف درهم ، والجمع بِدَر « بكسر الباء وفتح الدال »

(٣) الورع : الابتعاد عن الشبهات خشية الوقوع في المحرمات

(٤) الزهد : الاعراض عن الشيء احتقاراً — ونأى : بعد

(٥) الرُّقع : جمع رقعة ، وهي ما يُرقع به الثوب

(٦) يخنع : يذل ويهون ويحط من نفسه ومروءته

أو يبدّعه ، أو يفسّقه (١) ، تظنّ العامّة أنه متدين ، وهو بعيدٌ عن الدّين بُعدَ السّماء عن الأرض .

فاحذرْ ، أيها النّشءُ الصّالح ، هذين الرّجلين ؛ فيهما آفةُ الدّين (٢) .

الدّينُ نورٌ ؛ وعملُ هـذين ظُلمة . الدّينُ حقٌّ ؛ وعملُهما باطل . الدّينُ عُمرانٌ ؛ وما يدعوان اليه خراب .

لا تظنَّ الدّينَ ما يُملي الهوى ؛
ليس دينُ الله تلكَ البِدَعا (٣)
إنّما الدّينُ ضياءٌ لمعا ؛
- فاستنارَ الكونُ لمّا سطعا -
قبسَتْ منه المعالي شُعلةً
صدعت قلبَ الدّجا ، فانصدعا (٤)

تمسّكوا ، معشرَ النّاشئينَ ، بدينكم . ولا تدَعوا للمُنتَسبين اليه ، وهو براءٌ منهم ، سبيلاً ، تفوزوا بالسّعادتين ، وتنالوا الحُسنَيين (٥) .

---

(١) يبدعه ويفسقه : ينسبه الى البدعة والفسق
(٢) آفة الشيء : عاهته وضرره وفساده
(٣) البدع : جمع بدعة ، وهي ما يُنسب الى الدين وليس منه
(٤) صدعت : شقت — والدجا : الظلام
(٥) ان ما ورد من الشعر في هذه العظة هو لصاحب العظات

المدنية

المَدَنِيَّةُ الحقُّ سِيرةٌ تَكسِبُ المُتَمَدِّنَ صِحَّةً في جسمهِ وعقله، وتُلبِسهُ حُلَّةً تَزِينُهُ في أهله وعَشيرتهِ وبِيئَتِه [1]، وتَجعَلُه سعيداً في دُنياه وآخرتهِ.

فمن تَرَدَّى بردائها، وسَعَى لها سَعيَها، كانَ مُتَمَدِّناً. ومن فَهِمَها على غيرِ وجهِها — فلَبس لها رداءً غيرَ ردائها — كان مِمَّن طُمِسَ على قُلوبِهم؛ وضُرِبَ بَيْنَهم وبينَ السَّعادة بأسوارٍ لا تَقوَى على اختراقِها مَدافِعُ الآمال، بلْ تَعْيا [2] عن بُلوغِ أعلاها نُسورُ الأمانيِّ؛ ويَكِلُّ دُونَ ذُراها طَرْفُ الرَّجاء [3].

ما المدنيَّةُ إلاَّ أخلاقٌ فاضلة، تُثمِرُ ائتلافَ الأفراد، واتحادَ الجماعات؛ وسَعيٌ وعَملٌ، يَلِدانِ عُمرانَ البلاد، وارتقاءَ الحالةِ الاجتماعيَّة؛ وإقدامٌ على تَطهيرِ النَّفسِ من الرَّذائل، لاكتساب الفضائل؛ وإحجامٌ عن الضَّرَرِ

---

(١) البيئة: المنزل، والبلد أو القطر الذي تعيش فيه

(٢) تعيا: تتعب وتعجز

(٣) الذرا: جمع ذروة وهي أعلى كل شيء — والطرف: العين

بالنّاس [١] ، وابتعادٌ عن مناكِرِ الأخلاق ؛ وبذلٌ لتخفيف وَيلاتِ البائس [٢] ، وتشييدِ صُروحِ المدارس [٣] .

كانت الأممُ المشرقيّةُ ؛ وكان لها في المدنيّة صولة [٤] ، وفي تثبيت أركانها دولة . ثمّ دارت عليها الدائرة . فطرأ عليها ما طرأ ، ممّا خرّب عمرانها ؛ وبدّد تمدّنها [٥] . سنّةَ اللهِ فيمن لم يعملْ بقانون الاجتماع ، ولم يظلّ سائراً في سبيل الحضارة الصحيحة [٦] . فانتقلت علومُها ومدنيّتُها الى قوم عرفوا فضلَها ؛ فأحلّوها المقامَ الأرفع . ووسّعوا لها صدورَهم . وزادوا فيها ما اقتضتْه سنّةُ الترقّي ؛ ودعت اليه الحاجة . فبلغوا من الكمال في الحضارة مبلغاً جسيماً . وساروا أشواطاً عظيمة [٧] . فملكوا نواصيَ الأممِ الخاملة [٨] ؛

(١) الاحجام : التأخر والامتناع والكف

(٢) البائس : الشديد الحاجة

(٣) شيد البناء تشييداً : رفعه — والصروح : القصور ؛ والمفرد صَرْحٌ

(٤) الصولة : السطوة

(٥) بدد : فرّق وأذهب

(٦) الحضارة : المدنية ، وهي خلاف البداوة

(٧) الاشواط : جمع شوط ، وهو الجريُ مرةً الى الغاية ؛ وهو أيضاً : الغاية نفسها مُجرّى نحوها

(٨) النواصي : جمع ناصية وهي مقدم مُقدّم الرأس

وأحكَموا الشَّكائِمَ في أفواهِها [1] .

غيرَ أنَّ مدَنيَّتهم لم تَخلُ من شوائبَ [2] تُخالطُ كلَّ قومٍ اُستَبحَرَ عُمرانُهم [3] ، ونمتْ حضارتُهم على أنهم ليسُوا راضين عمَّا دَهَمَهُم من الأشواك [4] ؛ بل تراهم ساعين نحو تَشذيبِ شوائبهم [5] ، وتهذيبِ مدَنيَّتهم .

وقد أفاقَ الشَّرقُ اليومَ من غفلته ؛ وتنبَّهَ من سِنته [6] . وطَفِقَ يُقلِّدُ مدنيَّةَ الغَرْب ؛ كما قلَّدَ الغربُ مدنيَّتَهُ من قبلُ . غيرَ أنَّ السَّيرَ ضعيفٌ ، والسَّعيَ بَطيءٌ . وأكثرُ المُقلِّدينَ لم يَتمسَّكْ إلاَّ بقُشُور التَّمدُّن ، تاركاً لُبابَهُ . فما يَدرُسونَهُ إنَّما هو نظَريَّاتٌ لا تُسمِنُ ولا تُغنِي من جوعٍ . والعِلْمُ إنما هو العَمل . وهؤلاءِ لا يَعمَلُون بما يَعلَمُون . وفائدة العُلومِ الكَونيَّةِ (أو العَصريَّة) هوَ الوصولُ الى ماوصلَ اليه الغربيُّون ، من إنشاءِ المَعاملِ ودُورِ الصِّناعات ، التي تُدِرُّ على البلادِ غِنًى

(١) الشكائم : جمع شكيمة ، وهي حديدة اللجام المعترضة في فم الفرس
(٢) الشوائب : الاخلاط ، والعيوب ، والادناس
(٣) استبحر : انبسط واتسع
(٤) دهمهم : جاءهم على حين غفلة
(٥) التشذيب : الاصلاح والتهذيب
(٦) السنة : الغفلة ، والنوم

وثروة ، وتجتاح منها الفقر[١] ، وتقضي على البؤس[٢] .

وهناك قوم ، ممن يدعون تقليد بني الغرب ، لم يقلدوهم في علم مفيد ، ولا عمل نافع . وإنما قلدوا فساقهم وفاسدي الأخلاق منهم . فلا يعرفون من المدنية إلا أتباع الهوى ، والعمل بالمناكر ، والتفنن في الأزياء[٣] ، والتمسك بسافل العادات ، وتبذير الأموال في سفيه الأفعال .

فاحذر ، أيها الناشئ ، أن تفهم المدنية فهماً لا ينطبق على حقيقتها ؛ فتخسر دنياك وآخرتك ، وتجتذب الى جسمك الأمراض ، والى عقلك الفساد .

واعلم أن المدنية الصحيحة هي ما شرحت لك . فتمسك بعراها[٤] ، واعمل بمقتضاها ، تنل نفسك العاقلة مناها ، وتفز بمشتهاها .

(١) تجتاح : تستأصل وتمحو

(٢) البؤس : الشدة والشقاء

(٣) الازياء : جمع زي ، بكسر الزاي ، وهو الهيئة ، والمراد به هيئة الملابس ونحوها

(٤) العرا : جمع عروة هي ما يوثق به ويعول عليه ، وهي في الاصل : مقبض الدلو والكوز ونحوهما ، وما يدخل فيه الزر من القميص ونحوه

الوطنية

ما عجبتُ لأحدٍ قطُّ عجبي مِمَّن يدَّعي الوطنية ، ويزعمُ أنهُ يفدي الوطنَ بدمهِ وماله ؛ ثمَّ تراهُ شديداً في تخريب صياصيه (١) ، بما يأتيهِ من ضروب النِّكايةِ فيه (٢) .

ليس كلُّ من يُنادي بالوطنيَّة وطنياً ؛ حتى تراهُ عاملاً للوطن بما يُحييه ، باذلاً ما عزَّ وهانَ في سبيل ترقيه ؛ يسعى معَ الساعين في إعلاء شأنه ، وينصبُ (٣) مع النَّاصبين في حفظ كيانه .

أمَّا من يسعى فيما يفُتُّ في عضدِه ، ويكسرُ في ساعده (٤) ، فقد بعُدَ ما بينهُ وبينَ الوطنيَّة ، ولو رفع عقيرتهُ (٥) ، وملأ الأقطارَ صراخاً ، ونادى في الأُمة : أنْ إني من الوطنيين المُخلصين .

---

(١) الصياصي : الحصون ، وكل ما امتُنع به ؛ والمفرد صِيصة وصِيصية

(٢) النكاية : القهر ؛ يقال نكاه ونكى فيه ، أي : قهره وطامه

(٣) ينصب : يتعب

(٤) العضد : هو من المرفق الى الكتف . وفتُّ العضد وكسرُ الساعد : كناية عن اضعاف القوة وتفريق الاعوان

(٥) العقيرة : الصوت

الوطنيّةُ الحقُّ هي حبُّ إصلاحِ الوطن ، والسّعيُ في خِدمته . والوطنيُّ كلُّ الوطنيِّ من يموت لِيحيا وطنُه ، ويَمرَضُ لِتَصِحَّ أُمتُه .

ألاَ ، إنَّ للوطن على أبنائه حُقوقًا ؛ فكما لا يكونُ الاَبنُ أبنًا حقيقيًا حتى يقومَ بواجب الأُبوّة ، فكذلك أبنُ الوطن ، لا يكون أبنًا بارًّا حتى يَنهَضَ بأعباء خِدمته [١] ، ويدفعَ عن حِماهُ المُؤذين ، ويَذُودَ عن حِياضه المُدَلّسين [٢] .

ومن هذه الحُقوقِ تَكثيرُ سَوادِ المُتعلّمين ، المُتخلّقين بِصحيح الأخلاق ، المَغرُوسِ في قُلوبهم تلك الحِكمةُ المشهورة : « حُبُّ الوطنِ من الإيمان » . وذلك لا يكون إلا بِبَذْلِ المالِ في سبيل المصالح العامّة ، وإفراغِ الوُسعِ في تَشييد المدارس ، التي تَنفُثُ في رُوع النّابتةِ رُوحَ الوطنيّة [٣] ، وتُنبِتُ في نُفوسهم غِراسَ الفضيلةِ والعملِ الصّالح ، ونُهيبُ بهم [٤] لِيَنهَضُوا — متى بَلَغوا مَبلَغَ الرُّجوليّة — إلى خدمة هـذا الوطنِ التّعس ،

---

(١) الاعباء : الاحمال الثقيلة ؛ والمفرد عِبءٌ

(٢) يذود : يدفع ويمنع — والتدليس : أن يُظهر المرء الشيء على خلاف ما هو عليه ؛ وأصل معناه : كتمُ عيبِ السلعة عن المشتري

(٣) تنفث : تلقي — والروع : القلب — والنابتة : النشء

(٤) نُهيب بهم : تناديهم

الذي ضرَّهُ أبناؤهُ ، أكثرَ مِمَّا ضرَّ به أعداؤه .

وعن هؤلاء النابتين تصدرُ مقوّماتُ الحياة لهذه الأُمة ، التي كادَتْ – بسببِ خمولها وجمودها – تكتبُ في أسفارِ الأُممِ المندرسة[1] .

متى نشأ هؤلاء التلاميذُ – الذين يربَّونَ تلكَ التربيةَ الصحيحة – ودخلوا معتركَ الحياةِ الاجتماعيَّة ، كان منهم مالا عينٌ رأت ، ولا أُذنٌ سمعت ، ولا خطرَ على قلب بشر .

التربيةُ الحقُّ روحُ الحياة ؛ والعلمُ دَمُ الوطنِ . ولا تمكننا الحياةُ السعيدة إلاَّ بهما . فالتربيةُ تدفعُ الى السَّعي والعمل ؛ والعلمُ يرشدُ الى طريق السعادة .

نحن في حاجةٍ الى المَصانع الوطنية ، والتجارةِ الوطنية ؛ لتنالَ البلادُ الاستقلالَ الاقتصاديَّ ، وتتخلَّصَ من نيرِ الحاجة الى الأجانب . فمَن سعى نحوَ استقلال الوطنِ وتخليصه من مدِّ يدهِ الى غيره ، كان الرَّجلَ الوطنيَّ ، الذي تنحني أمامهُ الرؤوسُ إجلالاً .

إنَّ لكلِّ نتيجةٍ مقدِّماتٍ . ومقدِّماتُ الاستقلالِ تربيةُ النَّاشئينَ وتعليمُهم ؛ ليكونوا يدَ الوطن العاملة ،

(١) الاسفار : الكتب ؛ والمفرد سفر – والمندرسة : المنقرضة التي انطمس ذكرها ومجدها

وَرُوحُهُ المُقوِّمَةَ ، وَدَمُهُ الجاري في عُروقهِ . فعلّموا الأولاد ، تَسعدِ البلاد .

حُبُّ الوطنِ مَلَكَةٌ من مَلَكَاتِ النَّفس[1] ، لا يُنكِرُها إلاَّ الأفّاكون[2] أو الواهمون . وإنما يَصدِفُ النَّفس[3] عن هذا الحُبِّ فسادٌ في التربية ، أو خَلَلٌ في الدِّماغ ، أو عِرقٌ كان أجنبياً ؛ فهو يدفعُ الدَّخيلَ الى مُعاداةِ وَطنٍ فيه وُلِد ، وفي أرضه نشأ ، وبلِبانه تغذّى[4] ؛ ويَجعَلُه يَحِنُّ الى أرض لم يَعرِفها ؛ سوى أنها كانت مَنشأَ أبيهِ أو آبائه من قبلُ ، ويُشوِّقُهُ الى قوم لم يعرِف عاداتِهم ، ولا يَفهمُ لُغتَهم ، ولا تَجمَعُهُ بهم جامعةٌ ؛ سوى أنَّهُ كان منهم . وياليتَ من كان مِثلَهُ يكتفي بذلك الحنين ؛ فلا يَسعى لانتقاص وَطنٍ آواهُ ونَصرهُ ، بعدَ أن لفظَت آباءَهُ بلادُهم لفظَ النَّواة[5] ؛ ولا يَعمَلُ لإحباط[6] كلّ مَسعًى يُسعى لإنهاضه .

فإليك ، أيُّها النَّشءُ الكريمُ ، نَبسُطُ يدُ الرَّجاء . فانهض ،

(١) ملكة : صفة راسخة

(٢) الافاكون : الكاذبون أشد الكذب

(٣) يصدف : يصرف ؛ يقال : صدف عن الشيء ، اذا انصرف عنه واعرض ، وصدفه عنه وأصدفه عنه ، اي : صرفه عنه

(٤) اللبان : الرضاع

(٥) لفظت : طرحت . واللفظ : الطرح — والنواة : بزرة التمر ونحوه

(٦) احباط : ابطال

رعاكَ اللهُ ، للعلمِ ، وتَخلَّقْ بأَخلاقِ أَسلافك ، فإنَّ الوطنَ يُناديك : إني لك من المُنتظِرين .

واحذَرْ أُولئك الدَّسَّاسين[١] ، وتَيَقَّظْ لحبائلهم[٢] ، وتَنَبَّه لشرورهم فيهم داءُ وطنِك العُضالُ[٣] ، والسُّمُّ القتَّالُ . وما نَهكَ[٤] الوطنَ من قبلُ ، وما يعملُ على إضعافه من بعدُ ، إلاَّ هؤُلاء المُجرمون . فإنَّهم أعدى الأعداء ، وأَدوى الأدواء[٥] .

فكُنْ عليهم الخَطْبَ النَّازل ، والدَّاءَ القاتل ، والموتَ الزُّؤام[٦] ، والعينَ التي لا تَنام . وإياكَ أن يَطيبَ لك المُقامُ ، قبلَ أن تَريشَ السِّهام[٧] ، وتَقِفَ بالمِرصاد ، لأهل الفساد .

فحقِّقِ الأملَ ، يَحيَ بك الوطن .

---

(١) الدساس : المرائي بعمله ، فهو يندس أي : يدخل مع الاخيار وليس منهم والدساس : حية خبيثة تندس هادئة ، حتى اذا امكنها اللسع لسعت

(٢) الحبائل : المكايد ؛ وأصل معناها : المصايد

(٣) العضال : الشديد الغالب

(٤) نهك : أضعف واضنى وأتعب

(٥) أدوى الادواء : أشدها — والادواء : جمع داء

(٦) الزؤام : السريع الكريهة

(٧) تريش السهام : تلزق عليها الريش . وريش السهام : كناية عن النهوض للرمي — والسهام : النبال

الحرية

إنَّ للأُمم آجالاً [١] . وأَجلُ كُلِّ أُمةٍ يومَ تَفقِدُ حُرِّيتها .

الحُرِّيةُ هِبَةٌ من الخالق للمخلوق ، يُصرِّفُها فيما يَعودُ على نَفسه وعلى غيره بالسَّعادة والخير .

وتَدُلُّ في اللُّغة على معنى الخُلوص ؛ فالحُرُّ : خلافُ العَبدِ ، لخُلوصه من الرِّقِّ . وحُرُّ كلِّ شيءٍ : خيارُهُ . والحُرُّ من الطِّين والرَّمل : هو الطَّيِّبُ منها . ورَمْلةٌ حُرَّةٌ ، أي : صالحةٌ للإنبات . وحُرُّ كلِّ أرضٍ : أطيَبُها .

فأنتَ ترى أنَّ هذه المادَّةَ تَدُلُّ على الطَّهارة والجُودة [٢] وخُلوصِ الشَّيءِ مِمَّا يُكَدِّرُ صفاءَهُ وجودَتَه .

والحُرُّ — بالمعنى المَدنيِّ الصحيح — من كان خالصَ التربية ، نَقِيَّ النَّفس ، مُتَمسِّكاً بالفضائل ، نافراً من الرَّذائل ، كاسراً عنه قُيودَ العُبوديَّة ، عاملاً بما يطلُبُه منه الواجب .

إنَّ الإنسانَ لم يُخلَق ليكونَ عبدَ غيره ، ولا ليكونَ كُرَةً [٣] تتقاذَفُها الأهواءُ [٤] ، وتَعمَلُ على تحريكها أيدي

---

(١) الآجال : جمع أجل ، وهو مدة الشيء ووقته الذي يحل فيه وينتهي اليه

(٢) الجودة ، بضم الجيم : الصلاح

(٣) الكرة : كل جسم مستدير؛ والمراد بها هنا الكرة المعروفة التي يُلعب بها

(٤) الاهواء : الاغراض المختلفة ، وهي جمع هوى النفس

الزُّعَماء [١]، وتُصرِّفُها حَسَبَ رَغائِبها [٢] نُفُوسُ الكُبَراء؛ بَلْ خُلِقَ لِيَعملَ، مُنفرِداً ومُجتمِعاً بمقتضى السُّنَّةِ الإلهيَّةِ العامَّة، وهي الحرِّيَّة.

ولم تُسلَب هذه النِعمةُ الرَّبانيَّة الكُبرَى ـ من كثير من الناس ـ إلاَّ بِسبَب ما أفسَدَهُ الظَّالمون من نُفوسهم؛ فلم يَدَعوا الى تنوير أذهانهم بالعلم سبيلاً؛ لأنَّ الظالمين يَعلَمون يقيناً أنَّ العلم الصَّحيح يَهدِي إلى معرفة الحُقُوق؛ فهوَ الشَّرارةُ التي تُوقِدُ في النُفُوسِ الهِمَم؛ وتَربأُ بالعاقل [٣] أن يكون آلةً تُديرُها المُحرِّكاتُ الاستبداديَّة.

وقد قال عُمرُ بن الخَطَّاب لِعَمْرِو بنِ العاصِ، يومَ ضرَبَ وَلَدُهُ القِبطِيَّ: «متى استَعبَدتُمُ النَّاسَ، وقد وَلَدَتهُم أُمَّهاتُهم أحراراً ؟!».

ألاَ، أنَّ الحُرَّ لا يكون حُرّاً، إلاَّ إذا تَهذَّبَت نفسُهُ، ونَمَتْ فيها مَلَكةُ الإرادة، وحظِيَ من العلم الصحيح بحظٍّ غيرِ قليل؛ ثُمَّ أقدَم على تحرير نَفسه من رِبَقِ [٤] من يَملِكها

(١) الزعماء: الرؤساء، والمفرد زعيم

(٢) الرغائب: المشتهيات؛ وهي جمع رغيبة، وهي الامر المرغوب فيه

(٣) تربأ بالعاقل: ترفعه؛ يقال: ربأ به عن كذا: رفعه عنه فلم يرضه له

(٤) الربق: جمع ربقة وهي العروة من حبل فيه عدَّة عُرَى تُشد به البهائم

بالقُوّة والجَبَرُوت . فَمنْ لم يكن كذلك فقدْ شَسَعتْ بينَه وبين الحرّيَةِ المَساوفُ[١] ، وكان بينهما مفاوِزُ جمّةُ المَخاوف[٢]

ليس بالحُرّ من اتخذَ الحرّيةَ عنوانًا المرّذائل ، وطريقًا للمَفاسد ، وسيفًا يجتابُ به أرديةَ العفّة[٣] ، ورُمحًا يطْعنُ به الفضيلة ، وسهمًا يُمزّقُ أعراضَ الناس .

وليس من الحرّيةِ أن يفعلَ الإنسانُ ما يَضرُّ بهِ وبغيره : من إسراف في الأموال ، وإضاعةٍ للإنسانية ، وإباحةٍ للمُنكَرات ، وسَعيٍ في إفساد الهيئةِ الاجتماعيّة ، بما يأتيه من ضُروب الإيذاء والنَّميمة والغيبةِ[٤] والعُدْوان ، وغيرِ ذلك من نقائص الأخلاق .

إنّ كثيراً من الناس يَدّعي الحرّية ، وقد لَبِسَ لَبُوسَ[٥] العُبوديّة . فهو أسيرٌ لشَهواته ، عَبدٌ لزُعمائه وأُمرائه ، مملوكٌ لنَفْسه الأمّارة ؛ تَدفعُهُ الى المُوبِقات فيُجيب[٦] ، وتحفزُهُ الى

---

(١) شسعت : بعدت — والمساوف : جمع مسافة

(٢) المفاوز : الاماكن المهلكة ، والمفرد مفازة — وجمة : كثيرة

(٣) يجتاب : يقطع — والاردية : جمع رداء ، وهو الثوب

(٤) الضروب : الانواع — والنميمة : نقلُ أحاديث الناس لايقاع المفاسد — والغيبة : ان تذكر الناس بما يكرهون

(٥) اللبوس : ما يلبس

(٦) الموبقات : المعاصي المهلكات

السِّعاية بغيره [١] والضَّرَرِ به ، فيطيرُ الى تلبيتها [٢] . وإن دعاهُ داعي العقل الى ما يُحييه ، وأهابَ به حادي الوجدانِ [٣] إلى ما يُعليهِ ، وناداهُ مُنادي الشَّهامـة الى ما يَنْهَضُ بِشَعبهِ ويُقوِّيهِ ، تَصامَّ عن النِداء [٤] ، أو سَلَكَ طريقَ المِراء [٥] . ثمَّ هو ، بعدَ ذلك ، يدَّعي أنهُ إنسانٌ حرّ . وما الإنسانيَّة والحرّيةُ إلاَّ عاملانِ لِلعُمرانِ ، ورُكنانِ للاجتماع .

أيَّةُ أُمةٍ أرادت أن تكون في ذُروةٍ من الحضارة سامية [٦] ، ومَكانةٍ من السَّعادة عالية ، فعليها أن تُربيَ أفرادَها على الحرية الصحيحة ، وتُغذّيَ أبناءَها بِدَرِّها الطَّهور الخالص [٧] .

فانهضوا ، أيها النَّاشئون ، إلى الحرّيَّة الخالصة ، الخاليةِ من شَوائبِ المُدَلِّسين [٨] ، فإنّها سبيلُ النَّجاح ، وهي الحياةُ السَّعيدة .

---

(١) تحفزه : تسوقه وتدفعه — والسعاية : الوشاية
(٢) طار الى الامر : اسرع اليه — والتلبية : الاجابة
(٣) اهاب به : ناداه وزجره وصرخ به — والحادي في الاصل : من يحدو الابل ، اي : يسوقها ويغني لها لتقوى على السير
(٤) تصام : اظهر الصمم ، اي : الطرش وليس فيه
(٥) المراء : الجدال والمنازعة واللجاج
(٦) الذروة : أعلى كل شيء — والحضارة : المدنية
(٧) الدَّر : اللبن
(٨) الشوائب : الاخلاط ، والعيوب ، والادناس — والمدلس : من يظهر الشيء على خلاف ماهو عليه ، وأصل التدليس : كتم عيب السلعة عن المشتري

انواع الحرية

إن للحُرّية أنواعًا : منها حُرية الفَرْد ، وحُرية الجماعة ، والحرية الاقتصاديّة ، والحرّية السّياسيّة . ولا تَقُومُ لِشعبٍ قائمةٌ إلاّ بهذه الحريات الأربع .

فحُرّية الفردِ — وقد تُسمّى الحرّيّة الشّخصيّة — أمرٌ عظيمُ الخَطَر [1] . وعليه تَتوقّفُ حرّيةُ الجماعةَ ؛ لأنّ الجماعة تتألفُ من الأفراد . فحرّيتُها لا تكونُ إلاّ بحرّية أفرادها . فعلى الأُمّة — التي تودُّ أن تكونَ حُرّةً — أن تَسْعَى لتربية أفرادها تربيةً حُرّة ؛ ليتكوّنَ منها مجموعٌ حُرّ .

وحُرّيةُ الفردِ تَشمَلُ حريةَ القول والكتابةِ والطّباعة ونَشْرِ الفِكْر ؛ من غير رَقيبٍ ولا مُؤاخِذ ؛ على شرط أن لا يُخلّ ذلك بحرّيةِ غيره .

فهو حرٌّ أن يعتقدَ ما يشاء : من العقائد الدّينيّة والعِلْميّة والسياسيّة والاجتماعية ؛ وإن يُجاهِرَ بذلك ؛ إلاّ إن دَعَت مُجاهَرتُهُ الى انفصامِ عُرْوةٍ من عُرَى الاجتماع [2] ؛ وأن

---

(١) الخطر : الشرف وارتفاع القدر

(٢) الانفصام : الانقطاع — والعروة : ما يُوثق به ويُعوّل عليه ؛ وأصلها مدخل الزر

يَتصرَّفَ بما يَملكُ : من نَقدٍ وعَقارٍ[1] وغيرهما ؛ إلاَّ إن أدَّى عَملُهُ إلى السَّفَه[2] ؛ فلَهُ حينئذٍ حُكمُ المَحجورِ عليه[3] .

وصَفوةُ القولِ في حُريَّة الفَرْدِ ، أنها أمرٌ ينتهي حيثُ تبتدئُ حريةُ سِواهُ . فالواجبُ على الفَرْدِ أن يُحافِظَ على حُريَّة غيرِه ، كما يُحافظُ على حُريَّة نَفسه .

وحُريَّةُ الجماعةِ : أن يكون لها حقُّ الاجتماعِ أينَ شاءَت ومتى شاءَت ؛ إلاَّ إن كانت مُسلَّحةً ، فتُمنعُ من ذلك . لأنَّ عملَها هذا رُبَّما أدَّاها الى ما يُنافي الحرّيَّةَ الصحيحة ؛ وأن يكون لها الحقُّ في تأليف الجمعيَّات على اختلاف مَشاربها : من عِلميَّة وأدبيةٍ ودينيَّة وصناعيَّة وخيريَّة وسياسيَّة ؛ على شَرْط أن تُطابقَ أنظِمتُها[4] ما يَسُنُّهُ مَجلسُ الأُمةِ من القوانين الدُّستوريَّة . لذلك وَجبَ أن يكون رجالُ هذا المجلس ممَّن عُرِفوا بالحريَّة ، والعلم ، والصِّدق ، وصحَّةِ الوجدان ، والعقل ، والرَّويَّة ؛ كيلا يَسُنُّوا للأُمة ما يُقيِّدُ حُريَّتَها ، ويُنافي مَصلَحتَها .

---

(١) النقد : الدرهم ؛ والجمع نقود — والعقار ، بفتح العين : الدار والارض ونحوهما

(٢) السفه : خفة العقل ، والجهل ، والطيش

(٣) المحجور عليه : الممنوع من التصرف بماله بسبب السفه او الجنون أو التبذير

(٤) الانظمة : القوانين

والحرّيّةُ الاقتصاديةُ ، هي حياة الأمةِ المادّية . فإن لم تُطلَقْ لها حريةُ التجارة والزّراعة وإنشاء المصانعِ واستخراجِ المعادن ، للانتفاع بما تُكِنُّهُ الأرضُ[1] من موارد الرزق ، كانت حياتُها كامريٍ شُدَّ وَثاقُهُ[2] ، ووُضِعَ الحبلُ في عُنُقِهِ ، وقد مسكَ بطرَفيهِ رجُلانِ ذوا بأسٍ شديدٍ ، فهما يُهدِّدانِهِ بالخَنْق ، ويَتوعّدانهِ بالموت ، وهو يَترقّبُ[3] أن تَفيضَ روحُهُ من ساعةٍ الى أخرى .

إنَّ أوروبّةَ لم تَقبِض على ناصية الثروة[4] ، إلاَّ بعدَ أنْ أطلقت الحرّية الاقتصادية من قُيودها ، معَ ما أطلقتْه من أنواع الحرّية . ففي يَدِها اليومَ أرواحُ المشارقة ؛ فإن شاءت قتلَتهم مَنعَت عنهم أموالها ؛ وردَّت اليها مافي بلادهم من ذَهَبِها .

إنّ بلادَنا غنيّةٌ بِتُربتِها ومَعادِنِها ؛ ولكنَّها فقيرةٌ برجالها الأكفياء لإِسعادها[5] والنُّهوضِ بها .

---

(١) تكنه : تخفيه وتستره

(٢) الوثاق ، بفتح الواو : ما يُشدُّ به الاسير من حبل وقيد ونحوهما

(٣) يترقب : ينتظر

(٤) الناصية : مقدم الرأس

(٥) الاكفياء : من فيهم الكفاية ، أي الاهلية ، والمفرد كفيّ . واما الاكفاء فهم الامثال ، والمفرد كفؤ بمعنى المثل والمماثل ؛ وهو من الكفاءة ، بمعنى المماثلة . فبين الكفاية والكفاءة فرقٌ ، واكثر الناس لا يفرّقون بينهما ، توهماً او خطأً

يأتي الأجنبيُّ بلادَنا ؛ فيبتاعُ أرضَنا(١) ، ويَنتفعُ بخيراتها ، أو يَنالُ فيها «امتيازاً» ؛ فيستثمرُ مواضعَ منها ؛ ويَستخرجُ ما في بُطونها من أجنَّةِ المعادنِ(٢) ، التي تُدرُّ عليها الذَّهبَ والفضَّة ؛ ونحنُ عن ذلك لاهون ، وبأهوائنا مُشتغلون(٣) ، وعلى فَصْمِ عُرَى الوَحدةِ عاكفون .

والحرِّيةُ السِّياسيَّةُ : أن تكون الأُمةُ مُستقلَّةً استقلالاً تاماً بكلِّ شأنٍ من شُئونهـا ؛ غيرَ مُقيدةٍ بسلاسلِ أُمةٍ غيرها . فهيَ التي تضعُ أنظمتَها ، التي تُلائمُ مِزاجها ؛ وتُمضي العُهودَ معَ مَنْ شاءَت من الأُمم ؛ وتَضربُ الضرائبَ على ما يَرِدُ إليها من سِلَعِ الدِّيار الأجنبية . وتَبذُلُ الوُسعَ لِتنشيط الأعمالِ الزِّراعيَّة والاقتصادية ودُورِ الصِّناعاتِ الوطنيَّة ؛ إلى غيرِ ذلك من مُميِّزات الأُمم المُستقلَّة .

ولا تتمُّ هـذه الحرِّيةُ ، إلاَّ إذا وُفِّقت الأُمةُ لِتثبيت أركان الحرِّيات الثلاث التي تَقدَّم ذِكرُها . فإن لم تكن الأُمةُ كذلك ، كان سَيرُها نحوَ الترقي بَطيئاً ، وأنَّى

---

(١) يبتاع : اشترى

(٢) الاجنة : جمع جنين وهو المستور من كل شيء ، ولذلك يسمى الولد ما دام في بطن أمه جنيناً

(٣) الاهواء : جمع هوى ، وهو ميل النفس الفاسد

للظّالع أن يُدْرِكَ شأوَ الضَّليع[1] ! .

يَجِبُ على الأمةِ – إن أرادتِ الحياة – أن نسعى لِبَثّ أنواعِ الحريّةِ الأربعةِ في نفوسِ أبنائها . فإنّ الأمة ، إن فقدَت حريّتَها – التي هيَ قِوامُ حياتها – كانت أقربَ الى الانحلالِ والزّوال ، منها إلى البَقاء

فتشدّد ، أيها النّشءُ الكريم ، وتعلّمْ دُرُوسَ الحريّةِ الصحيحة ؛ واحذرْ أنْ تظنّ الحريّةَ ما يَظُنُّهُ من لا خلاقَ لهم . ثمّ اسعَ لِنشرها في أمّتك . وأجهدْ نفسك في تحرير بلادِك من رِقّ العادات السّافلة ، والأخلاق الفاسدة . واتعَبْ لتكسرَ عنها أغلالَ العُبوديّة التي تَنُوءُ بِها[2] . فعسى أن تَنشَطَ من عِقالها[3] ، وتطرَحَ عنها قُيودَها ؛ فتكونَ بذلك أمةً حرّة ، تستطيعُ البقاءَ أمامَ تيّارِ مدنيّةِ الأمم .

فإنّ للأمم آجالاً . وأجلُ كلِّ أمةٍ يومَ تفقِدُ حرّيتها .

---

(١) الظالع : من يغمز في مشيه لشبه عرج فيه — والشأو : الغاية — والضليع : القوي الشديد الاضلاع . والمعنى لا يصل الضعيف الى ما يصل اليه القوي

(٢) الاغلال : القيود — وتنوء بها : تثقلها

(٣) تنشط من عقالها : تُحلّ منه . والعقال : حبل يعقل به البعير في وسط ذراعه

الإرادة

ما رأيتُ أحداً جزمَ إرادتَهُ[1] على أمرٍ إلاّ كان، ولا عزمَ شيئاً[2] إلاّ وصلَ اليه.

ذلكَ، أنّ الإرادةَ رغبةٌ في الأمر، يتبعُها سعيٌ اليه، وبذلُ جهدٍ لتحقيقه، وتهيئةُ الأسباب المُمكنة لإيجاده، ثمّ إقدامٌ على عمله. ولا شكّ أنّ الأمرَ كائنٌ متى اجتمعَ له كلُّ هذه الدواعي[3].

وقد عبّرَ الصوفيّةُ عن ذلك بقولهم: «إنّ للهِ عباداً إذا أرادُوا أرادَ». فكأنهم جعلوا إرادة اللهِ تابعةً لإرادة المُريد من عباده. وهم لم يعنُوا بذلك إلاّ ما شرحناه. فإنّ المُسبّباتِ مرهونةٌ لأسبابها. وقد جعلَ اللهُ حصولَ المُراداتِ مُتوقّفاً على جزم الإرادة.

وقد وردَ في الحديث: «إنّما الاعمالُ بالنّياتِ». ولا

(١) جزم الامر: قطع به قطعاً لا عودة فيه

(٢) عزم الشيء وعزم عليه: عقد ضميره على فعله وقطع عليه وامضاه من غير تردد فيه

(٣) الدواعي: الاسباب

رَيبَ[١] أنَّ من صدق العزيمة ، وأحسن النيَّة ، ووجه الإرادة ، وأقدم على ما يرغبُ فيه بقلبٍ مُربدٍ ، نال ما يتمنَّاه ، وفاز بمشتهاه ؛ لأنَّ المُسبَّب — وهو المُراد — كائنٌ عندَ وُجودِ السَّبب — وهو الإرادةُ —

الإرادةُ : تربيةُ النَّفس على الحزْم والإقدام على الأعمال المُمكِنة ، حتى تصيرَ مَلكةً من مَلكاتها[٢] . وهي سعادةٌ لِمَنْ تخلَّق بها ما وراءها سعادةٌ . فبها يعملُ الإنسان ؛ وبها يترقَّى ؛ وبها يتركُ ما أَلِفَهُ من العادات الضَّارَّة والأخلاق الشَّائنة[٣] ؛ وبها يكون أميراً على نفسه ، سُلطاناً على مَلكاته ؛ وبها يكونُ إنساناً كلَّ الإنسان . فإنَّ الإنسان الكاملَ من لا يَصُدُّهُ عن مُراده المُمكن صادٌّ ، ولا تقفُ شهواتُهُ وعاداتُهُ عقبةً[٤] في سبيل المُراد .

إنَّ الأنبياء والفلاسفة وعُظماء الرجال ، لم يستطيعوا أنْ يبثُّوا ما توخَّوْهُ[٥] من العقائد والتعاليم ، ولم يصلوا إلى ما أرادُوهُ من الأعمال — التي كُتِبَتْ بالنُّور على جبين

(١) لا ريب : لا شك ولا شبهة
(٢) ملكة : صفة راسخة
(٣) الشائنة : العائبة
(٤) العقبة : المرتقى الصعب
(٥) يبثوا : ينشروا — وتوخوه : قصدوه

الدُّهور – إلاَّ بالإِرادة . فإنَّ من مُقتضياتِها الحزمَ والثَّباتَ على العمل حتى يكون ؛ ولو أصابهم في هذه السَّبيل من المصائب ما يَدُكُّ الجبال[1] ، ونابهم من النوائب ما يَفُلُّ الحديد[2] .

وإنَّ ما نراهُ من خيبة أعمال كثيرٍ من العاملين ، ناتجٌ من إهمال تربية الإِرادةِ فيهم . فَهُم لا يستطيعون الثَّباتَ على ما يَقُومون به ؛ بَلْ يُوَلُّونَ الأَدبارَ[3] عندَ أَوَّلِ صَدمةٍ تَصدِمُهم . وإنما الصبرُ عندَ الصَّدمةِ الأُولى .

الإِرادةُ تُوجبُ الصَّبرُ ، وإباءَ التَرَدُّدِ في الأُمور ، واُحتقارَ الصُّعوباتِ التي تَعتَورُ المشروعاتِ المفيدة[4] . وذلك يوجبُ النَّجاحَ في الأَعمال بَتَّةً[5] .

متى رَسَخَت الإِرادةُ في النَّفسِ تحكَّمَ العقلُ ، وسقَطَ هوَى النفس الأَمَّارة ؛ فكان الإِنسان في أَعلى مَراتبِ الكمال . لأَنْ مَلَكةَ الإِرادة تَطْبَعُ في النُّفوس الفضيلة ،

---

(١) يدك : يهدم

(٢) نابهم : أصابهم – والنوائب : المصائب – ويفل : يكسر

(٣) يولون الادبار : ينهزمون

(٤) تعتور : تأتي مرة بعد أخرى

(٥) بتة : قطعاً . بت الامر : امضاه بلا تردد

حتى نكونَ صالحةً مهذَّبةً سعيدة .

ومتى كثُرَ في الأمة عــددُ الذين رَسَخت فيهم هذه المَلَكة ، سارت في العُمران والتَّرقي والمدَنيَّة أشواطاً[1] عظيمة . وكلُّ أمــةٍ تنهار دعائمُ مجدِها[2] ، وتتقوَّضُ أراكينُ عزِّها[3] ، يكون ذلك من قَحْط الرِّجال[4] - رجالِ الإرادة - فيها .

ألا ، إنَّ من ضعفَت إرادتُه كان صغيرَ النَّفس ، وضيعَ المَنزِلة ؛ تلعَبُ به الأهواء[5] ، وتعبَثُ[6] به إراداتُ الصِّبيان ، بَلْهَ الرجال[7] . فيكون كُرَةً تتقاذفُها الأغراض ، وهدَفاً تُراشُ لهُ السِّهام[8] . فإن أتاهُ آتٍ بأمرٍ ، فحمَلَهُ على الاعتراف بأفضليَّته ، أجابَ . ثمَّ إن جاءَهُ آخرُ ، فدعاهُ الى القول بأرذليَّته ، أبى . فهو لا يَستقِرُّ على حالٍ ؛ بل

(١) الاشواط : جمع شوط وهو الجري مرةً الى الغاية . والسباق قد يكون بشوط او اكثر

(٢) تنهار : تسقط — والدعائم : جمع دعامة وهي عماد البيت ونحوه

(٣) تتقوض : تنهدم — والاراكين : جمع اركان

(٤) قحط الرجال : فقدانهم او قلتهم

(٥) الاهواء : الميول الفاسدة ؛ وهي جمع هوى النفس

(٦) تعبث : تلعب

(٧) بله : اسم فعل امر بمعنى دع واترك

(٨) الهدف : ما يُنصب ليرمى اليه — وتراش : يُلزَق عليها الريش . وريش السهام : كناية عن التهيؤ للرمي

تتنازعُه إراداتُ الرّجال ، وتعتورُه دواعي الأهواء . إذ ليس له عاملٌ من نفسه يدفعُ الباطلَ بالحقّ ، ولا قلبٌ ذكيٌّ يُفرّقُ بينَ الصّحيح والفاسد . ومن كان كذلك فأحرِ به [1] ألاَّ يكون إنساناً كاملاً .

فعلى الأُمة ، التي تودُّ حياةً طيّبة وعيشةً راضية ، أن تُربّي ملكةَ الإرادةِ في نُفوس أطفالها ؛ فإنَّ الإرادةَ سبيلُ السّعادة .

يا معشرَ النّاشئينَ ، أنتم عمادُ الأُمة ، إنتم دعامةُ مجدِها ، أنتم رجالُها في الآتي ؛ فتعوّدُوا أن تكونوا مُريدِين . ولا تعبَئُوا بما يحُولُ بينكم وبين ما تُريدون . فخُلُقُ الإرادةِ رأسُ الأخلاق ؛ وهو عينُها المُبصِرة ، وقلبُها المُفكِّر .

جرِّدوا الإرادةَ يسهُلِ المُرادُ ؛ فإنَّ لِلّهِ عباداً إذا أرادوا أرادُو أراد .

oooooooo

(١) احرِ به : اجدر به

الزعامة[1] والرئاسة

قضت السنة الآلهية[2] أن يكون في كل نوع من المخلوقات رئيس ومرؤوس، وسائس[3] ومسوس[4]؛ كيلا تتفرق الآراء، وتتشعب الأهواء[5]؛ فيكون من ذلك تشتت الشمل، وتوهن[6] الحبل، وافتراق الجماعة، وشق عصا الألفة.

وكل قوم لا رئيس لهم يرجعون اليه في المشكلات، ويصمدون اليه في المعضلات[7]، يضحون وقد ركبوا متون الشوامس[8]، ويبيتون في ليل من الحيرة دامس[9].

إذا كانت الروح قوام الجسم، فالرؤساء في كل أمة

---

(١) الزعامة، بفتح الزاي: الرئاسة والشرف

(٢) السنة الآلهية: النظام الآلهي او الشريعة الآلهية التي اختطها الله لعباده

(٣) السائس: مدبر أمور الدولة والرعية

(٤) المسوس: الرعية التي يدبر امورها السائس

(٥) تتشعب: تتفرق

(٦) التوهن: الضعف. وتوهن الحبل: كناية عن ضعف القوة

(٧) يصمدون: يلجئون ويقصدون — والمعضلات: الامور المشكلة

(٨) المتون: الظهور، والمفرد متن — والشوامس: الدواب التي لا تمكن الراكب من ظهرها لسوء خلقها، والمفرد شامس وشامسة؛ والشموس — بفتح الشين — كالشامس

(٩) دامس: شديد الظلمة

هم رُوحُ اجتماعِها . فإن فَسَدُوا فَسَدَت ، وان صَلَحُوا صَلَحَت ؛ لأنّ الأُمةَ لا تقومُ لها قائمةٌ إلاّ إذا قام فيها زُعماءُ يَنهَضُون بها إن عَثرَت ، ويُقوّمونها إن أعوجّت ، ويأخذون بيدها إن سقطَت ، ويُرشدونها إن ضَلَّت .

ولا يكونُ الرّئيسُ رئيساً حقاً ، حتى تَتوَفّرَ فيه شُروطُ الرّئاسة من العقل ، والعلم ، وصحّةِ الوجدانِ ، والمُروءَة ، والشَّهامَة ، وطهارة السَّريرة ، وحُسنِ السّيرة ، والكرم ، والبَذْلِ الجمِّ في سبيل إحياء الأُمةِ ونَشرِ العلم في رُبوعها . فمن نَهجَ هذا المَنهَجَ [1] ، وقام بهذه الأعباء [2] ، كان عَيناً من الأعيان ، ورئيساً من الرُّؤَساء ، وزَعيماً من الزُّعماء . وإلاّ فهو على الوَجاهة والرّئاسةِ والزّعامة والشّرَف طُفَيليٌّ [3] دَخيلٌ .

يَتهافَتُ [4] كثيرٌ من ضُعفاء العُقول على الرّئاسة

(١) نهج : سلك — والمنهج : الطريق الواضح

(٢) الاعباء : الاحمال الثقيلة

(٣) الطفيلي : من يدخل في امر لم يدع اليه : وهو نسبة الى طفيل : رجل من أهل الكوفة كان يأتي الولائم من غير ان يدعى اليها . ويسمون من يفعل ذلك بالوارش ايضاً ، كما يسمون من يدخل على القوم في شربهم — فيشرب معهم من غير ان يدعى — بالواغل

(٤) يتهافت : يتساقط ؛ وأصله التساقط شيئاً بعد شيء .

وليس لهم من شروطها حبّةُ خردلٍ ؛ وقد نسوا أنَّ رئيس القومِ لسانُهم النّاطقُ ، وقلبُهم المفكّرُ وصمدُهم في الشّدائد[1] ، وحصنهم عندَ النوائب ، وموئلهم[2] إن عضّهم الدّهرُ ، وسندُهم في كلّ جليلٍ من الأمر .

كانَ للأمةِ عصورٌ لم يكن يرأسها[3] فيها إلاّ السّادةُ المخلصون ، والبررةُ[4] المصلحونَ . ثمَّ هوتْ بها كِفّةُ الميزان ، فرأسها الفسقةُ الأدنياء ، دعاةُ الجهلِ والعصيان ، والطّغاةُ السّفهاء ، أولياء الشّيطان .

ألا ، إنَّ الزّمانَ قد أستدار ؛ فقدْ تنبّهت الأمةُ من رقدتها[5] ، وأستيقظت من غفلتها . فهي لا ترضى أن تبقى في أسرِ من يعملُ على هلاكها ، ويرغبُ في أستعبادها . ولا تقرُّ بالزّعامة والرّئاسةِ إلاّ للمصلحين الصّالحين ، الذين يرغبونَ في الموت لتحيا الأمةُ ، ويؤثرونَ[6] المتاعبَ حباً لراحتها ؛ ويرضون بالشّقاء رغبةً في سعادتها .

---

(١) الصمد : من يصمد اليه الناس ، اي يقصدونه بحاجاتهم

(٢) الموئل : الملجأ

(٣) رأسهم يرأسهم : صار رئيسا عليهم

(٤) البررة : الاخيار

(٥) رقدتها : نومها

(٦) يؤثرون : يقدمون ويفضلون

فَتقَدَّمْ ، أيها النَّاشيءُ ، الى العلمِ الكامل ؛ وتَمَسَّكْ بالخُلُقِ الفاضل ؛ وأقدِمْ على العمل الصَّالح ، مُسترشداً بالعقل الرَّاجح لِتكونَ زعيمَ[1] قومِك ورئيسَ عشيرتِك .

وإيَّاكَ أن تُحدِّثَك نفسُك بالزَّعامة ، أو يَغرَّكَ رَونَقُ الرِّئاسة ، وأنتَ لستَ لهُما بأهل ؛ فتَجلُب الى قومك الوَيلَ ، والى نَفسك الذُّلَّ .

لا يَصلُحُ القومُ فَوضى لا سَراةَ لَهُم
ولا سَراةَ إذا جُهَّالُهم سادُوا
والبَيتُ لا يُبتَنى إلاَّ لهُ عَمَدٌ
ولا عِمادَ إذا لم تُرسَ أوتادُ
فإنْ تَجمَّعَ أوتادٌ وأعمِدَةٌ
يوماً ، فقَدْ بَلَغوا الأمرَ الذي كادوا[2]

---

(١) الزعيم : سيد القوم ورئيسهم

(٢) كادوا : ارادوا . ومنه قوله تعالى : « ان الساعة آتية اكاد اخفيها » اي : اريد اخفاءها . وقول الشاعر : « كادت وكدت وتلك خير ارادة » أي : ارادت واردت : وليست بمعنى قرب لانها ليست هنا من افعال المقاربة

عشاق الزعامة

إذا كانت الأمةُ ، التي لا زعيمَ لها يُرشِدُها ، تسيرُ في مَهْمَةٍ من الفوضى مُتشابِهِ الأعلام[١] ، مُخُوفِ المسالكِ ، بَعيدةِ أرجاؤه[٢] ، كأنَّ لونَ أرضهِ سماؤُه ؛ فإنَّ الأمَّةَ التي يَكثُرُ عُشَّاقُ الزَّعامةِ فيها ، ويَنمو عددُ مُحِبِّي الرِّئاسةِ في مجموعها ، أكثرُ منها فوضى ، وأشدُّ حيرةً ، وأعظمُ وبَلاءً .

حُبُّ الرِّئاسةِ داءُ هذا الشَّرقِ الوَبيلُ[٣] . والتَّهافتُ على الزَّعامة مَرضُهُ المُزْمِنُ . وما من زعيمٍ يقومُ فيه ، إلاَّ خفقَتِ الغَيْرَةُ في قُلوب قومِه ، واحتَدمَ الحسدُ[٤] في نُفوسهم ؛ فتراهم يَعملون على السِّعاية به[٥] ، ويبذُلون ما لديهم من قُوَّةٍ لإسقاطه ، ويُناصِبونَهُ العَداوة[٦] ، ويُصارحونَهُ بالأذى . فإن كان زعيماً حقاً ، فهوَ لا يأبَهُ لِمناوأتهم[٧] ،

---

(١) المهمة : الفلاة المقفرة المهلكة — والاعلام : الجبال ؛ والمفرد علم

(٢) الارجاء : الاطراف والنواحي ؛ والمفرد رجا

(٣) الوبيل : الشديد

(٤) احتدم : اشتعل

(٥) السعاية : الوشاية

(٦) يناصبونه العداوة يظهرونها له . ويقال : ناصبه مناصبة أي قاومه وعاداه

(٧) لا يأبه : لا يلتفت ولا يبالي — والمناوأة : المعاداة والمعارضة

ولا يَعبأُ بمصادمتهم؛ بل يَثبُتُ على ما يُريدُه لقومه من الخير ثباتَ الرِّجال، لا يُبالي الأهوال، ولا يَكترِثُ للصعوبات، ولا يَحفِلُ بالمَخوفاتِ. وإن تزعزعَ لأوَّل صدمة، كان ضعيفَ الإرادة، بليدَ النَّفس. وأحرِ بِمَن كانَ كذلك أن لا يكونَ رئيساً للقوم!.

ما رأيتُ أحداً لم تُحدِّثه نفسُه بالزَّعامة! وأهلُ الزَّعامةِ قليلٌ. فهل الزَّعامةُ متاعٌ يُشترَى؟! أو ثوبٌ متى لبِسَهُ الانسانُ صار زَعيماً؟!

إن الزَّعيمَ هوَ روحُ الأُمة. وهل ترضى أُمةٌ أن يكونَ زعيمُها هيَّ بنَ بيٍّ[1]، أو الضَّلالَ بنَ فَهْلَلَ[2]، أوِ الجهلَ أبنَ الغباوة، أو الفُسُوقَ بنَ العِصيان!

كُلُّ قومٍ رأَسهم أوشابُهم[3]، وتحكَّمَ فِيهِم جُهلاؤُهم، وكان زُعماءَهُم أنذالُهم؛ كان الخرابُ عاقِبتَهم، والدَّمارُ[4] مُنتهاهم

ليسَ الرَّئيسُ من يبذُلُ المالَ، ويبُثُّ الرجال، لترغيب

(١) هي بن بي، وهيان بن بيان: كناية عمن لا يُعرف ولا يُعرف ابوه

(٢) ضلل: اسم للباطل، وهو غير منصرف للعلمية ووزن الفعل باعتبار أنه على وزن جانب

(٣) الاوشاب: الاخلاط من الناس كالاوباش؛ والمفرد وشب، بفتحتين. ومفرد الاوباش وبش، بفتحتين ايضا

(٤) الدمار: الهلاك والخراب

النَّاسِ في رِئاستِه ، والالتفافِ حولَ عَلَمِ زَعامتِه · وإنَّما الرَّئيسُ مَن كانت الرِّئاسةُ خُلُقاً من أخلاقه · وذلك لايكون إلاَّ في رَجُلٍ معروفِ الفضيلة ، آبي الرَّذيلة [١] ، زَكيِّ الوِجدان ، ثابتِ الجَنان [٢] ، عالي الهِمَّة ، نَقيِّ الذِّمة ذَكيِّ الفُؤاد ، رَفيعِ العِماد [٣] ، تُرابيِّ النَّفسِ ، عِصاميِّها [٤] ، واضحِ الأخلاق ، طاهرِ الأعراق [٥] ، عالِمٍ بما تحتاجُ اليه الأمة ، ساعٍ نحوَ ما يُفيدُها ويُعلي شأنَها · ومن كان كذلك سادَ النَّاسَ وزَعَمَ عليهم [٦] ؛ وكانت لهُ الكلمةُ النَّافذةُ فيهم ، والمَقامُ الأرفعُ بينَهم ·

عَجِبتُ واللهِ — وحُقَّ لِيَ العَجَبُ [٧] — لرَهطٍ ليسوا في العِيرِ ولا في النَّفيرِ ، يَسعَونَ السَّعيَ الحَثيثَ [٨] لتُقِرَّ الأمةُ لهم بالزَّعامة ؛ وهم أهوَنُ عليها من كلِّ هَيِّنٍ ، ولا مِيزَةَ

---

(١) آبي الرذيلة : ممتنع منها

(٢) زكي الوجدان : صالحه وطيبه — والجنان : القلب

(٣) ذكي الفؤاد : متوقده وفطينه — ورفيع العماد : سيد شريف

(٤) العصامي : من يفتخر بعمل نفسه ؛ وعكسه العظامي وهو من يفتخر بآبائه ؛ وهو نسبة الى عصام بن شهبرة الذي قال فيه الشاعر : « نفس عصام سودت عصاما » · وفي المثل : « كن عصاميا ولا تكن عظاميًّا » اي اشرف بنفسك كعصام لا بآبائك الذين صاروا عظاما

(٥) الاعراق : الاصول

(٦) زعم عليهم : تأمر عليهم وسادهم

(٧) حق لي العجب ، بصيغة المجهول : اي وجب علي

(٨) الحثيث : الشديد السريع

لهم ترفعهم الى المقام الذي يسعون اليه . وقد اتخذوا الوقيعة [1] في أفاضل الأمة ، وأكل لحومهم ، وتلطيخ أعراضهم ، سبيلاً الى ما يقصدون اليه ؛ ليخلو لهم الجو ؛ فيكونوا هم الرؤساء والزعماء . ولم يدروا أنهم بعملهم هذا ينكشف عوارهم [2] ، ويفتضح أمرهم ؛ فتزداد الأمة منهم نفوراً ، وتوسعهم احتقاراً وبغضاً .

وهناك رهط ، متى أخفق في سعيه ، ولم ينل من الزعامة ما يريد ، قام باسم الدين ، وهو أجحد الجاحدين ، فنسب الى غيره الكفر والإلحاد [3] ، والضلال والفساد ، واتخذ لأهوائه الضالة سافل الوسائل ، ليصدف [4] الأمة عن ذلك الزعيم العامل ، ويصرف وجوهها عنه اليه ، ويجعل أمرها بين يديه ، وربما صدقه بعض السذج [5] من العامة ، لأنه يضرب على وتر الدين . ولكن المجموع

---

(١) الوقيعة : السب والشتم

(٢) العوار بفتح العين، ويجوز ضمها وكسرها : العيب ؛ وأصله العيب في السلعة

(٣) الالحاد : العدول عن دين الله والطعن فيه

(٤) يصدف : يصرف

(٥) السذج : الذين لا خبرة لهم ؛ والمفرد ساذج وأصل معناه : مالا نقش فيه ، فكأن التجارب لم تنقش في قلوبهم

لا يَلتفتُ اليه ، ولا يُعوِّلُ عليه ، ولا يَعبأُ بتُرّهاته[1] ، ولا يَجنحُ إلى مُفترياته[2] .

فأُعيذُكم بالله ، مَعشرَ النّاشئين ، أن تتّخذُوا للزّعامة أمثالَ هذه الأسباب ؛ فتتقطّعُ بكم الأسبابُ[3] ، وتنفرُ منكم الأمةُ ، ويَبعدُ ما بينكم وبينَ الفضيلة .

ايّاكم وحبَّ الرّئاسة ، إلاّ إذا أتتكم مُنقادةً تجرّرُ أذيالها ، بما لكم عندَ الأمةِ من جميل الصُّنع ، وطريفِ الفضائلِ وتالِدِها[4] .

واحذَروا ، إن قام فيكم زعيمٌ هو أهلٌ للزّعامة ، وكانت قلوبُكم مُطمئنّةً اليه ، أن يَغرّكمُ الحسدُ ، فتنهضُوا الى إسقاطه ، وتعملُوا على صَرفِ وُجوهِ النّاسِ عنه . بل ساعدُوهُ على ما قام به ، وأعِينُوهُ على مشروعِه ، وكونُوا له أيدياً تُسعفُهُ ، وأعضاداً تدعمُهُ[5] . فإن فعلتم ذلك كنتم لأمتكم من المُحسنين .

---

(١) الترهات : الاباطيل

(٢) لا يجنح : لا يميل

(٣) الاسباب الاولى : الوسائل ، والاسباب الثانية : الصلات والمودات ؛ وأصل معنى السبب : الحبل

(٤) طريف الفضائل : جديدها ؛ وتالدها : قديمها

(٥) الاعضاد : الاعوان ، والمفرد عضد — وتدعمه : تُسنده وتقويه

الكذب والصدق

لستُ أعني بالصدق والكذب – في هذا المقام – ما هو معروفٌ لكلّ واحد ؛ فإنّ هذا الأمرَ من البديهيّات التي يعرفها الصبيانُ . وإنما أعني بهما صدقَ الفعلِ وكذبهُ ؛ فإنهما نتيجتان للقولِ في حالَيْ صدقهِ وكذبه .

لا تقل لأحدٍ : إنكَ صادقٌ أو كاذبٌ ، حتى ترى صدقَ عملهِ أو كذبه . ولا تصفْ قولاً بصدقٍ أو كذبٍ ، حتى ترى أثرهُ ؛ لانّ القولَ تعظُمُ قيمتهُ ، أو تصغرُ ، بنتيجته . ولا يصدُق القولُ حتى يصدُقَ العملُ .

صدْقُ الفعلِ نتيجةٌ لازمةٌ لأصحاب الإرادة ، الذينَ لا يحولُ بينهم وبينَ تحقيقِ ما يقولون حائل .

نرى كثيراً من النّاس – حتى من لهم منازلُ عاليةٌ ، بسببِ ما يتقلّدونهُ من الأعمال السّامية – يقولون ما لا يفعلون ؛ وإن طالبتهم بإنجاز أقوالهم ، والوفاء بوعودهم ، غاصوا على انتحال الأعذار ، ولجؤوا الى ما طُبعوا عليه من الرّياء والنّفاق ، وأضاعوا الأوقاتَ في ترويج المعذرات . وما ذلك إلاّ من ضعف الإرادة في نفوسهم ، وعدمِ تعوّدهم

صِدْقَ القولِ لِيَصْدُقَ الفعل .

إن أجاب الإِنسانُ بالسَّلب ، حينَ يُسأَلُ إنفاذَ أَمرٍ ، فلا يَلُومُهُ أحدٌ . بل يكونُ الرَّدُّ خيراً من وَعدٍ يَتبعُهُ المِطالُ والتَّسويفُ [١] . وإنَّما يُلامُ أشدَّ اللَّومِ من قال : أَفعلُ ثمَّ نَكَصَ على عَقِبَيه [٢] ، ولم يَفِ بما وعدَ به . وما إخلافُ الوَعدِ من دأب [٣] الرِّجال الكَمَلة ، وما الكَذِبُ إلاَّ من أخلاق السَّفلَة [٤] .

يَجِبُ على المَرء ، قبل أن يَعِدَ بأَمر ، أن يَتَرَوَّى فيه حتى يَقتُلَه خُبراً . فإن رأى أنَّ في قُدرته أن يَفِيَ بِه وَعدَ ؛ وإلاَّ تَوقَّف . أَمَّا مَن يَعِدُ قبلَ التَّفكُّر والتأمُّل : أَفي وُسعِه الوَفاءُ بما وعدَ به أم لا ؟ فهو رَجلٌ أحمَقُ أَهوَجُ [٥] . وكثيراً ما يرمي الحُمْقُ بصاحبه في مَفاوِزَ من النَّدَمِ بَعيدَةِ الأَرجاء [٦] .

(١) المطال : المماطلة — والتسويف : ان تعد احداً مرة بعد مرة بقولك : سوف افعل

(٢) نكص على عقبيه : رجع

(٣) الدأب : العادة

(٤) السفلة : بفتح السين وكسر الفاء ، وبكسر السين وسكون الفاء : الاسافل والغوغاء والاوباش . واما السفلة ، بفتح السين والفاء ، فجمع سافل ضد العالي

(٥) الاهوج : الطائش الاحمق ، والمؤنث هوجاء ، والجمع هُوج بضم الهاء

(٦) المفاوز : الفلوات المهلكة ؛ والمفرد مفازة — والارجاء : الاطراف والنواحي

وبعدَ فإن تعجب لأمرٍ ، فأعجب لقومٍ يقولون ويَعِدُون ؛ وهم قد وطّنوا أنفسهم (١) على عدم الوفاء . وإنما يدعوهم الى الكذب ما أشربَتْهُ نفوسهم من فساد التربية ومن اعتاد أمراً ، حتى صار خُلُقاً له ، صعبت إزالته من نفسه . فهو يلازمه حتى يُدْرَجَ في قبره (٢) . وإنّ المرء ، متى عُرِفَ بتركِ الوفاء وكذِبِ العمل ، نفرَ منه النّاسُ حتى أحصَوْهُ ؛ فلا يثقون به إن قال ، ولا يَلتفتون اليه إن وعد . بل يرونه كسرابٍ بقيعةٍ يحسبهُ الظمآنُ ماءً (٣) ، حتى إذا جاءه لم يجدْهُ شيئاً .

ما انتشرت هذه الخصلةُ الشّنعاء في أمةٍ ، ألاّ فقدتِ الثّقةُ من نفوس أبنائها . وفقدانُ الثّقة فقدانُ الحياة .

فإياكم ، معشرَ النّاشئين والكذبَ ؛ فإنّه يُؤدّي الى ثلْمِ (٤) تاجِ الشّرف . واحذَرُوا الإخلاف بالعهد ؛ فإنّه داعيةُ نفورِ الأمة .

إن كنتم قادرين على الوفاء ، فعِدُوا ؛ أو على الفعل ، فقولوا . وإلاّ فدَعُوا الوعدَ والقول ؛ كيلا تكونوا من الكاذبين .

---

(١) وطن نفسه على الامر : مهدها وذللها ليحملها على اتيانه

(٢) يُدرج : يُدخل

(٣) السراب : ما تراه نصف النهار من شدة الحر كأنه ماء — والقيعة : ارضٌ سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال — والظمآن : العطشان

(٤) الثلم : الكسر والشق

الاعتدال

من نَشَدَ الفضيلة[1] ، فَلْيَطْلُبْها في الاعتدال :

فالاعتدالُ في الفكر ، والمَذْهب ، والمأكل ، والمشرَب ، والمَلْبَس ، والبَذْلِ[2] ، وكلِّ أمرٍ حسيٍّ أو معنويٍّ ، هو الفضيلة .

ومن لزِمَ قَصْدَ السبيلِ[3] ، كانت عاقبةُ أمرِه السلامة ، وكلا طرفيْ قصدِ الأمورِ ذميم .

الاعتدالُ : هوَ التوسُّطُ في كلِّ شيء :

الشجاعةُ فضيلةٌ ؛ لأنها وَسَطٌ بينَ نقيصتي التهوُّرِ والجُبْن

والجُودُ فضيلةٌ ؛ لأنهُ قَصْدٌ بينَ رَذيلتَيْنِ : الإسرافِ والبُخْل .

وهكذا تجِدُ كلَّ فضيلةٍ من الفضائل في الاعتدال ، أي : التوسُّطِ بينَ رذيلَتين .

الذكاء ، إن زادَ أدَّى الى الخَلَل في الأعمال ، وحَمَلَ على

---

(١) نشد الفضيلة : طلبها وبحث عنها ليهتدي اليها

(٢) البذل : العطاء

(٣) القصد : استقامة الطريق ، والتوسط في الامور — وقصد السبيل : الطريق المستقيم الموصل الى الحق والفضيلة

أُمورٍ لا تَليقُ بالعاقل ؛ وإن نَقصَ كان بِنقصهِ البَلَهُ والغَباوة ·

والتَّقوى ، إن جاوزَت حدَّها كان منها الوَسوسةُ ، التي تُؤدِّي في أكثرِ الأوقاتِ الى تَركِ العبادةِ والعُكوفِ [1] على أعمالِ الفُسَّاقِ العاصين ·

لذلك نَهتِ الشَّرائعُ السَّماويَّةُ عن الغُلوِّ في الدِّين ، وأَمرت بإتباعِ القَصدِ فيه · وقد ورَدَ في الحديث : « إنَّ المُنبَتَّ [2] لا أَرضاً قطعَ ، ولا ظَهراً أبقى » ·

والعلمُ ، متى اُتسَعَت دائرتُه في الإنسان ، كانت عاقبتُهُ الجهلَ · وربُما وصلَ من جاوزَ الحدَّ في علمه الى جهل كثيرٍ من حاجات نَفسِه ·

والقاعدةُ الشَّاملةُ أنَّ كلَّ شيء جاوزَ حـدَّهُ اُنقلب الى

---

(١) العكوف على الشيء : الاقبال عليه ولزومه والمواظبة عليه

(٢) المنبت : المنقطع ؛ والمراد به المنقطع عن رفاقه في السفر ، الذي يحمل دابته على ما لا تُطيقه من السير ، رغبة في الاسراع ، ليصل الى غايته ، فينقطع ظهرها تعباً ، فلا تقدر على مواصلة السير ؛ فينقطع هو في الطريق ؛ فيكون حينئذ ما قطع الارض التي يسير فيها ليبلغ ما يقصد اليه ، ولا ابقى ظهر دابته سالماً · فكذلك من يجهد نفسه ويتعبها في العبادة وينقطع فيها ، فلا يلبث ان يملها ويبغضها ؛ فلا هو بلغ المقصود من ارضاء الله ، ولا أبقى نفسه في الراحة

ضِدّه . وهي قاعــدةٌ تَعُمُّ الحيوانَ ، والنَّبات ، والجمادَ ، والمَعقولاتِ ، والحِسّيَّاتِ ، والاجتماعَ ، والعُمْران .

فالعاقلُ من أَلزَمَ نفسَــهُ التَّوسُّطَ فِي الأُمور ، والاعتدالَ في أحواله المَعاشيَّــة والاجتماعيَّةِ والدّينيَّة . فإنَّ الاعتدال هو السَّلامةُ . وما ضَرَّ الأُمةَ إلاَّ تركُ الاعتدال .

فاعتَصِمْ[1] ، أيهـا الناشئُ ، بالاعتدال ؛ ولا تدَعْ لِشيطانَيْ طرَفيِ الأمرِ سبيلاً اليك . فخيرُ الأُمورِ أوسطُها ؛ لأنَّ فيه الفضيلةَ . والفضيلةُ نُجعَةُ الرّائدين[2] .

---

(١) اعتصم : تمسك

(٢) نجعة الرائدين طلبة الطالبين . والنجعـة : في الاصل : الـكلأ والمرعى — والرائد : الرسول يرسله القوم ليرى لهم مكاناً صالحاً لنزولهم ومرعى مواشيهم

الجود

المالُ – كالقُوّة – خادِمٌ للإنسان عندَ مَسِيس الحاجة .

إذا رأيتَ أحداً ، وقد هَمَّ بالبَطْش بك ، تَدفعُ عنك أذاهُ بما لَدَيك من قُوّة .

وإن رأيتَهُ ، وقدِ اعتَدَى على أحدِ الضُّعفاء ، دَفعَتك الحماسةُ الى مُقاومته ورَدِّ عدوانهِ عن ذلك الضَّعيف ، صَدَقَةً عن قُوّتِك . وتَكونُ حماستُكَ أشدَّ ، إنْ رأيت الأعداء مُندفعةً الى مقاتلة الأُمة وتخريبِ بلادها .

وكذا ، إن شعَرَتْ نَفسُكَ بحاجةٍ الى أمرٍ من الأُمور التي تَنتفعُ بها ، فإنَّك تَدْفعُ هذه الحاجةَ بدَفعِ جُزء من مالك تَبذُلُهُ في سبيلها .

وإذا وجدتَ بائساً ، أو ضعيفاً لا حَوْلَ لهُ ولا قُوّةَ ، حَرَّكَتْكَ عاطفةُ المُرُوءةِ والحَنان ، فَبذَلتَ ما تَسْمَحُ به نَفسُكَ لِسَدِّ عَوَزِهِ[1] ودَفعِ حاجته .

وإن رأيتَ الأُمة كلَّها في حاجة الى البَذْل – وأنتَ

(١) العوز : الضيق والحاجة

قادرٌ على إصلاحِ فاسدِها ولَمِّ شَعثِها[١] — كان أندفاعُك الى الإحسان أشدَّ ، وشعورُك بالحاجة الى البَذْلِ أقوى .

وكما يَصدِفُ[٢] الجُبْنُ الإنسانَ عن ردِّ من أرادَ به أو بغيره السوء — فيكونُ عُرضةً للمؤذين ، ومَرْوةً للقارعين[٣] — فكذلك البُخلُ يَصرِفُهُ عن البَذلِ فيما يحتاجُ اليه من الحاجات ، حتى الضَّرُوريَّةِ منها . ومن جَبُنَ عن دفع الأذى عن نفسه ، وبَخِلَ بما يَسُدُّ به ثُغورَ حاجاته[٤] ، فأجدِرْ به أن يَجْبُنَ في مأزِق[٥] الدِّفاعِ عن غيره ، ويَبْخَلَ ولو بقليل من المال يَنفَعُ به سواه .

وكما يُضَيِّعُ التَّهوُّرُ في أكثر الأحيان حياةَ من عَشِقُوا الإقدامَ على المَخُوفات — من غير تروٍّ ولا تفكُّر ، فلا يَنفَعُونَ بإقدامِهم ولا يَنتفعون — فكذلك الإسرافُ وتَبْذيرُ الأموالِ فيما لا يُفيدُ ، يكونُ داعياً لضَياعِها ، وأن يَبيتَ صاحبُها بعدَها حَزيناً آسفاً .

وكلُّ ذلك من نتائجِ تركِ الاعتدال ، فلْنَلزَمِ الاعتدال .

---

(١) لم الشعث : جمع المتفرق (٢) يصدف : يصرف

(٣) المروة : واحدة المرو ، وهي حجارة بيض رقاق برّاقة صلبة تنقدح منها النار ، وتُعرف بالصوّان . ويقال قرعَ الدهرُ مروةَ فلان ، اي : أنزل به البلاء

(٤) الثغور : الشقوق ؛ وهي جمع ثغر . والثغر في الاصل : الشق بين الجبلين ، وموضع المخافة من البلد يخاف هجوم العدو منه (٥) المأزق : موضع الحرب ، والمضيق

صاحبُ المالِ يُتلِفُ مالَهُ الإسرافُ والإنفاقُ على مالا خيرَ فيه لنفسه ولا لأمته ؛ فيُصبحُ بعد حينٍ في عِداد الأوفاضِ [1] ، خاليَ الوِفاض [2] ، صِفرَ اليدَين [3] ، فارغَ الكفَّين .

والشُّحُّ [4] يَسوقهُ الى النَّصَبِ [5] في كَسب الذَّهب ؛ ثم يَحُولُ دُونَه ودُونَ أن يَحيا حياةَ السُّعداء . وما المالُ إلاّ وسيلةٌ للعَيش الرَّغدِ [6] ، وسَبَبٌ لتَخفيف الفاقةِ عن الفُقَراء [7] ، ومُداواةِ آلامِ البائسين .

كما لا خيرَ في قوّةٍ بلا شَجاعة — لأنّ صاحبَها يكونُ جباناً ، أو مُتهوّراً — فلا خيرَ في مالٍ بلا جودٍ ؛ لأنّ صاحبَه يكونُ بخيلاً أو مُسرفاً .

إن كان في الإسراف إتلافُ الأموال ، فَفي البُخل بها إرهاقُ النَّفسِ عُسراً [8] . فالوَيلُ في كِلتا الحالتين نازلٌ بِمَنْ تَخلَّق بها .

---

(١) الاوفاض : الفقراء الذين لا مال لهم . والاوفاض ايضاً : الفِرَق من الناس ، والاخلاط او الجماعة من قبائل شتى

(٢) الوفاض : جمع وَفضة ، وهي خريطة يحمل فيها الراعي اداته وزاده

(٣) صفر اليدين : فارغهما (٤) الشح : البخل مع حرص

(٥) النصب : التعب

(٦) الرغد ، بفتح الراء وسكون الغين ، وبفتحهما : الواسع الطيب

(٧) الفاقة : الفقر والحاجة

(٨) ارهقه عسراً : كلفه اياه . والارهاق : تكليف ما لا يستطاع ولا يطاق

والاعتدالُ – وهو الجود – داعيةُ السعادةِ بالمال .
قال تعالى : «ولا تجعلْ يدكَ مغلولةً الى عُنُقك[1] ، ولا تبسُطها كلَّ البسطِ ، فتقعُدَ ملوماً محسوراً» .

فلزُومُ القصدِ[2] ، واتّباعُ وسطِ الأمرِ ، هوَ المُنجّي من الوَيلات[3] . فلْيُنفقِ الإنسانُ على نفسه وعِياله ، والمحتاجينَ من النّاس ، وعلى المشروعاتِ النّافعة ، ما ليس إسرافاً ولا بُخلاً .

ولْيُعلَمْ أنّ الجُودَ يُقدَّرُ بِقدْرِ الثّروة . فرُبَّ جودٍ يُعدُّ بخلاً في جانب آخرَ ، والعكسُ بالعكس .

وبعدُ ، فإنّ في الأمّة قوماً ، أصلحَهمُ اللهُ ، حسِبُوا البُخلَ سَببَ الخلودِ في الدُّنيا . فإن طلبت منهم أن يَقُوموا بِسدِّ عوَزِ بعضِ الفُقراء ، وإعانةِ بعض المشروعاتِ الحيويّة ، ظنُّوا أنكَ تدْعُوهم الى إشراع الرِّماح[4] ، وتجريدِ الصِّفاح[5] ، وبذْلِ الأرواحِ ، في ساحة الكِفاح[6] . فمِنهم مَن يَبْخَلُ على نفسه وعلى غيره ، وهو شرُّ الفريقَين . ومنهم من يَبْخَلُ على غيره

(١) مغلولة : مشدودة في الغل ، وهو القيد . وغلُّ اليد الى العنق : كناية عن البخل (٢) القصد : التوسط في الامور

(٣) الويلات : المصائب

(٤) اشراع الرماح : رفعها وتسديدها الى وجه العدو

(٥) الصفاح : السيوف العراض ، والمفرد صفيحة

(٦) الكفاح : الحرب مواجهة

وَيجُودُ على نفسه ؛ فهوَ من الأَنانِيِّينَ [١] ، الذينَ ضَعفَ شُعُورُهم ، وَمرِضَ وِجدانُهم ؛ فَهُمْ يرَوْنَ الحياةَ في موت الأُمة ، والسَّعادةَ في شَقائها .

وهُناكَ قومٌ مُبذِّرون مُسرفون ؛ إن رأَوا مُنكَراً أقبلوا عليه ، أو سَمِعُوا بسَفاهة طاروا اليها ، وَبذَلُوا في تلك السبيلِ القَناطيرَ المُقَنطَرةَ من الذَّهب والفضَّة . وإن دُعُوا لِلبَذْلِ في سبيل الخير ، عَمُوا وَصَمُّوا [٢] . وأُولئك هُم شرُّ الثلاثة ، وأُولئك همُ العادُون [٣] .

فأبتَعِدْ ، أيها النَّشءُ الصَّالحُ ، عن هؤلاءِ وأُولئك . وٱلزَمْ سبيلَ الأَجوادِ الكِرام ؛ فهيَ السبيلُ الواضحةُ ، والمَنهَجُ الأَسدُّ [٤] . فإنَّ الجُودَ هو الاعتدال ؛ وهو مَحطُّ الرِّحال [٥] ، وَمجلَى الآمال ، وَميدانُ الرِّجال .

فبهِ تمسَّكْ ؛ والى حِصنهِ ٱلتجِئْ ، تَكُنْ أُمَّتُك سعيدةً بك .

---

(١) الاناني : من لا يرى غير نفسه ، فهو يقول : أنا أنا

(٢) عموا : صاروا عمياناً — وصموا : طرشوا

(٣) العادون : الظالمون الذين تجاوزوا الحدّ في الظلم

(٤) المنهج : الطريق الواضح — والاسدّ : الاكثر سداداً ، أي : استقامة

(٥) الرحال : جمع رَحل ، وهو ما يوضع على الجمل . وفلان محطّ الرحال : مقصود بالحاجات

السعادة

ما اختلفَ النّاسُ في تفسيرِ أمرٍ اختلافَهم في تفسيرِ السّعادة ذلك، لأنها من الأشياءِ النِّسبيّة، والأمورِ الإضافيّة. فهي ليست من الخيرِ المُجمَعِ عليه؛ وإنما هي خيرٌ بالإضافة الى شخص رآها كذلك.

قد يَستَحسنُ زَيدٌ أمراً؛ فيَعدُّهُ سعادةً، ويَحسَبُ الواصلَ اليه سعيداً. ويَرى عَمرٌو الأمرَ نفسَهُ؛ فيَعدُّهُ شقاءً، ويَظنُّ العاكفَ عليه شَقياً.

فالسّعادةُ — كالجَمال — قد تَباينت فيها الفُهومُ[1]، واختلفت في تَفسيرِها المُيولُ. ومَرجِعُ الأمرِ الى الذّوق، وتضارُبُ المَنازع، إنما هو من تَبايُن الأذواق.

فمِنَ النّاس من يَرى السّعادةَ في التّبسُّط[2] في المأكل والمَشرَبِ، أو اللهوِ، أو المَلبَسِ، أو تَمضِيةِ الوقت في المَنازِهِ[3] والمَلاهي. ومنهم من يراها في كَسْبِ المالِ

(١) تباينت : اختلفت (٢) التبسط : التوسع

(٣) المنازه : جمع متنزه، وهو المكان الذي تُرَوِّح فيه النفوس كالجنان ونحوها؛ وهو جمعٌ بحذف الزوائد. وقول الناس منزه — بتقديم النون على التاء — خطأ

وَحَبْسِهِ في الصناديق . ومنهم من يَعُدُّها في المُطالعة والمُدارسة ، والغَوْص على دُرَرِ العلوم ، والبَحث عن مكنُونات الآداب . ومنهم من يَحْسَبُ أنها في التَّخلِّي عن هذا العالمِ الفاني ، والزُّهدِ فيما تَحْويهِ هذه البسيطةُ من مَتاعها . ومنهم من يراها في التَّسلُّط والأَثرَةِ (١) وتذليلِ النَّاسِ ، ليكونوا عَبيدَ أهوائه ، وأَرِقَّاءَ شَهَواته (٢) . ومنهم من يراها في غير ذلك من المَنازع والمَشارب .

والسَّعيدُ من نظَرَ بعينِ العقل ، واخْتَطَّ لنفسهِ خُطَّةً وَسطاً يسلُكُها . فالاعتدالُ في الأمر داعِيةُ السَّعادة فيه .

التَّوسُّط في المأكل والمَشرَب سَببٌ لحفظِ الصِّحَّة من الامراض والأخلاطِ الفاسدة .

والاعتدالُ في التَّنزُّه واللهو داعيةُ سُرُورِ النَّفْسِ ونَشاطِ الجسم . وفي تركها انقباضُها . وفي الزِّيادة منها تَعْويدُها الكسلَ والخُمُولَ والمَيْلَ الى المَفاسد .

والاقتصادُ في كسبِ المالِ وبَذْلِه يَهْدِي الى وُجوهِ الخير في مَكْسَبه ، وتركِ الشَّرَهِ (٣) في جَمعه من حِلِّهِ وغيرِ

(١) الاثرة : الاستئثار ، وهو الاستبداد بالمنفعة
(٢) الارقاء : العبيد
(٣) الشره : اشتداد الحرص وغلبته

حاله ؛ ويُرشِدُهُ الى طُرُق الإنفاق القويمة ؛ فلا يكونُ بخيلاً ولا مُسرفًا ؛ بل يعيشُ عيشةَ السّعادةِ والرّفاهة [١]

والقَصْدُ [٢] في العُكوف على الدّرس والمُطالعة يَدعو الى تَرْويح النّفس ، ويَطْرُدُ عنها المَلَلَ والسّآمة .

والأخذُ بِحَظّي الدُّنيا والدّين ، والتّمسُّكُ بما يُرَبِّي الجسمَ ويُنعّمه ، ويُهذِّبُ العقلَ ويُقوِّمُه ، سببٌ لِنَيلِ السّعادتينِ في الحياتين .

وحَملُ النّفسِ على التّرفُّع عن الصَّغار [٣] ، والتّنزُّهِ عن الكبرياء ، هو الإباءُ المحمودُ [٤] . وهو شرَفٌ للنّفس عظيم ؛ لأنه يَرْبأُ بالنّفس أن تَستكينَ للضّيم [٥] ، ويَعصِمُها [٦] أن تَعمِدَ لاحتقار النّاس ، أو تَميلَ الى تذليلهم ، أو تَجنَحَ للاستئثار بالمَرافِق والمَنافِع [٧] .

(١) الرفاهة والرفاهية : لين العيش وسعته ورغده

(٢) القصد : التزام التوسط

(٣) الصغار : الذل والضيم

(٤) الاباء : خلق يمنع الانسان مما يعيبه

(٥) يربأ بالنفس : يرفعها ويعيها — وتستكين : تذل وتخضع — والضيم : القهر والظلم والذل

(٦) يعصمها : يمنعها

(٧) تجنح : تميل — والمرافق : المنافع والمصالح ؛ والمفرد مرفق « بوزن منبر ومجلس ومقعد » وهو ما ارتفقتَ به ، اي : انتفعتَ

وفيما تقدَّم من مجموع هذه التَّوسُّطات — وغيرُها مَقيسٌ عليها — سعادةٌ للمُتخلِّق بها ، تجعلُ حياتَه في هناءة ، وعيشَه في رَغد [١] .

فمَنْ أراد أن يكون سعيداً — في نفسه وأهله ، وماله ، وولده ، وصحبِه ، وكلِّ عملٍ من أعماله — فعليه أن يتطلَّبَ السَّعادةَ في قصدِ السَّبيل . وليَجعلْ دليلَهُ الى ذلك الدينَ والعقلَ والوجدان ؛ فهُنَّ خيرُ دليل .

إنَّ طريقَ السَّعادة ، أيها النَّاشيءُ الكريمُ ، أمامَك . فاطلُبْها في العلم والعمل الصَّالحِ والأخلاقِ الفاضلة . وكُن في كلِّ أمرك وسطاً ، تكُنْ سعيداً .

---

(١) الرغد ، بفتح الغين وتسكينها : السعة

القيام بالواجب

لو قام النَّاسُ بما وَجبَ عليهم ، لَكانُوا — وهم في الأرض — في جَنَّة الخُلْد .

على المَرْءِ أن يَعرِف ، باديءَ بَدْء ، ما وَجبَ عليه معرفةً صحيحة ؛ ثمَّ عليه أن يقومَ به حقَّ القيام .

معرفةُ الواجبِ شيءٌ عظيم ؛ والقيامُ به أمرٌ أعظم .

إن كان هُناك كثيرٌ من النَّاس لا يَعرِفُ الواجب ، فإنَّ أكثرَهم يَعرِفُهُ ولا يَرْعى لهُ عهداً[1] . ومَلامةُ من يعرِفُ الحقَّ فيَحِيدُ عنه ، أشدُّ من مَلامة من يَحِيدُ عنه لأنهُ يَجْهَلُه .

عَجِبْتُ من بعض النَّاس : كيفَ يُريدُ من غيره أن يقومَ بما وجبَ عليه نحوَهُ ، ثمَّ هوَ يُهمِلُ أشدَّ الإهمال ما وجب عليه نحوَ غيره ! ...

مَنشأُ إهمالِ الواجبِ أحدُ شيئينِ : الأَثَرَةِ[2] ، وضَعفِ الإرادة .

---

(١) لا يرعى : لا يحفظ

(٢) الأثرة : الاستبداد بالمنفعة والانفراد بها

فالأَثَرَةُ تدفعُهُ الى احتقارِ غيرِه والاستبدادِ بالمَرافِق دُونَه[1] . فيَقِلُّ بذلك الواجبَ عليه نحوَ الأفرادِ والجماعات : من القيامِ بخدمتها ، والسَّعيِ وراءَ منافِعها ، كما تَخدُمه وتَسعى لمَنفعته .

وضَعفُ الإِرادةِ يَحُولُ[2] بَينَهُ وبينَ أن يقوم بما وجب عليه . فإن خطَرَ له أن يعمَلَ ، حالت تربيتُه الفاسدةُ دُون القيامِ بالواجب .

القيامُ بالواجب من المَنافع المُشترَكِ فيها ، التي يَعودُ نَفعُها على القائم بها ، كما يَعود على غيرِه . لأَنك إن عمِلتَ ما وجب عليك نحوَ أمرِيءٍ من الناس ، فإنه يَبذُلُ جُهدَهُ ليُقابلَك بمثلِ عملِك ، ويقومَ بما وجب عليه نحوَك . وإن قُمتَ بالواجب نحوَ الأُمة ، ودَعوتَ غيرَك للقيام به نحوَها سَعِدتْ ، وكانت سعادتُها سعادةَ أفرادِها ، الذينَ أنتَ واحدٌ منهم .

قُمْ بالواجبِ نحوَ والدَيك ، يقُوما بالواجب نحوَك . وبذلكَ تَنالُ ما تَتمنَّاه من السعادة .

---

(١) المرافق : المنافع

(٢) يحول : يعترض ويمنع

وقُمْ بالواجب نحوَ أساتذتك — بأن تكون مُتخلِّقاً بالأخلاق الفاضلة ، مُكِبّاً على الدَّرسِ ، باذلاً الجُهْدَ في إيفاء الواجباتِ المَدرسيّة — تكُنْ أحبَّ اليهم من أولادهم .

وقُمْ بالواجب نحوَ أصدقائك — بأن تكونَ لهم عَوْناً في الضَّرّاء[1] ، وأنيساً في السَّراء[2] ، وأن تموتَ لموتهم ، وتَحْيا لحياتهم ، وأن تأْخذَ بأيديهم إن عَثَرُوا[3] ، وتُساعِدَهم إن أملَقُوا[4] — يكُونوا لك أعواناً في الشَّدائد ، وأعضاداً في النَّوازل[5] .

وقُمْ بالواجب نحوَ أهلِكَ — بأن تُواسِيَ فُقراءَهم[6] ، وتَدْفعَ الحاجـةَ عن مَحاويجهم[7] — يَفْدُوك بأرواحهم ، ويَبْذُلوا ما عَزَّ وهانَ لرفعِ شأْنِكَ وإعلاءِ مَنْزِلتك .

وقُمْ بالواجب نحوَ أولادِك — بأن تُربيَهُم تربيةً حسَنة ، وتُخَلِّقَهم بالأخلاق التي تجعلُهم في دَرَجات الرِّجال — يَقُومُوا

---

(١) الضراء : الشدة

(٢) السراء : الرخاء

(٣) عثروا : سقطوا وزلوا

(٤) أملقوا : افتقروا

(٥) الاعضاد : الاعوان — والنوازل : المصائب

(٦) تواسي فقراءهم : تعطف عليهم وتشركهم فيما أنعم الله به عليك

(٧) المحاويج : جمع محتاج

بواجبك ، ويرفعوا من مقامك ، ويكونوا لك خدماً في شيخوختك ، يوم لا تجد من يخدمك سوى بضاعك المهذبين[١] ، الذين قمت بواجبهم في زمن نشأتهم .

وقم بالواجب نحو زوجك — بأن تعاملها ، كما أمرتك الشريعة ، بالإيناس والبشاشة واللين ، وأن تأتيها بما تحتاج إليه ، بلا إسراف ولا تقتير[٢] ، وأن تهذب أخلاقها ، وتعلمها ما وجب عليها — تكن لك أطوع من يمينك ، وتقم بالواجب عليها نحوك ، وتعش شريكة لك في السراء الضراء .

وقم بالواجب نحو تجارتك وصناعتك وسائر عملك — بأن لا تكون غاشاً ، ولا خادعاً ، ولا مروجاً لفاسد ، ولا محبذاً لعوار[٣] ، ولا مادحاً لمعيب — تر أفئدة الناس تهوي اليك ، ويقبل القوم على مالديك من تجارة أو صناعة أو عمل . لأن الثقة أمر عظيم . ولا يوجده إلا القيام بالواجب .

---

(١) البضاع الاولاد ؛ والمفرد بضعة ، بفتح الباء ، وقد تكسر ؛ وهي في الاصل : القطعة من اللحم . وسمي الولد بضعة لانه قطعة من ابويه

(٢) التقتير : التضييق

(٣) العوار ، بتثليث العين : العيب ، والخرق في الثوب ، والعيب في السلعة

وعلى الحكومةِ أن تقوم بواجبها نحوَ الشَّعب — بأن تحترمَ لغتَهُ، وآدابَهُ، وعاداتِهِ، ومميزاتِهِ، وحقوقَهُ الأدبيَّة والقانونيَّة، وسائرَ ما هو حقٌّ لهُ — فإن فعلَتْ ذلك اندفعت الأمةُ لنصرتها وشدِّ أزرها [1]؛ وأقدمت على القيام بما وجب عليها نحوَها.

وقيامُ كلِّ فريقٍ — من الحكومةِ والأمةِ — بما يجبُ عليه نحوَ الآخر، هو السَّعادةُ، التي ما وراءها سعادةٌ في هذه الحياة.

فعليكَ أيها النَّاشئُ، بالقيام بالواجب؛ فإنَّهُ روحُ الوجود، وسرُّ العمران، ورأسُ الأخلاق.

أنصفِ النَّاسَ من نفسك، يُنصِفُوكَ من أنفسهم.

وقُمْ بالواجب عليك نحوَ غيرِك، يَقُمْ بالواجب عليه نحوك.

ooooooooo

(١) شد الازر: كناية عن التقوية — والازر: الظهر والقوة

الثقة [1]

لو لا الثِّقَةُ لَعاشَ النَّاسُ دَهرَهمْ في القَلَق والخوف .
وفقدُ الثِّقةِ فقدانُ الحياةِ السَّعيدة .
فهيَ رُوحُ الأَعمال ، ورَيحانةُ [2] الآمال .

إن ضَعُفَت الثِّقَةُ في النُّفوس ، كان الإِنسانُ ، نحوَ أَخيهِ الإِنسانِ ، وحشاً ضارياً [3] ؛ يَتنكَّرُ لرُؤْيته ، ويَتحفَّزُ لِمُقاومته [4] . فلا يأْتَمِنُه على مال ، ولا يَركَنُ اليه في حال .

التِّجارةُ مَدارُ الحرَكةِ الاَقتصاديَّة ؛ وهي مَبنيَّةٌ على تَبادُل الثِّقة . ولولاها لَكَسَدَتِ الأَموالُ ، ووَقفَ دولابُ الأَعمال . فكان من ذلك شقاءُ الحياة ، وضِيقُ دائرة الرَّجاء [5] .

وأَيُّ عاقلٍ يُقدِمُ على تَسليم أَمواله الى من لا ثِقةَ له به ؟!
إنَّ هذا لَضَربٌ من الجُنونِ عَظيم [6] !

---

(١) الثقة : الائتمان . وَثِقَ به يَثِقُ : ائتمنه

(٢) الريحانة : واحدة الريحان ، وهو نبت طيب الرائحة

(٣) ضارياً : مفترساً

(٤) يتحفز : يتهيأ للوثوب

(٥) الرجاء : الامل

(٦) الضرب : النوع ، وجمعه ضُرُوب

وكما أنّ فقدَ الثقةِ في الأُمور الماديَّةِ داعيةٌ أنحلالها وفسادِها ، فكذلك هو في الأُمور المعنويَّة .

إذا صادقتَ إنساناً ، فوجدتَ أن لا ثقةَ لكَ بصداقته — لأنه يبيعكَ بأكلةٍ ، أو بما هو أحقرُ منها ، أو يأكلُ لحمكَ[1] معَ من يراهُ يأكُلُهُ ، أو لا يدفعُ عنك بظَهْرِ الغيبِ ما يُوجَّهُ إليك من السُّوء ، بل يَجبُنُ عن القيام بِنُصرتك ، أو يبذُلُ الجُهْدَ في أستنباط الحِيَلِ لِيَختاسَ أموالك ، أو لِيَطَّلعَ على أسرارك ، ثمَّ يُفشِيَها بين النَّاس — فإنك لا تُقيمُ على صداقته ، ولا تَركَنُ لِخُلَّب صُحبَتِه[2] . وإن بَقيتَ مُحكِماً حَبْلَ المَودَّةِ ، فأنت غِرٌ[3] جهولٌ ، أو جَبانٌ ضعيفُ الإرادة .

الغاشُّ في عَملِهِ يُميتُ ثِقةَ النَّاسِ به ؛ فلا يُقبِلون على تجارته ، ولا يَحفِلونَ بصناعته ، ولا يأبَهون لِعملٍ من أعماله[4] .

المُخادِعُ والمُرائي والمُنافِقُ والكاذبُ والطَّامعُ

(١) يأكل لحمك : يغتابك

(٢) صحبة خلب : غرّارة لا فائدة منها ، كما قالوا : برق خلب ، الذي لا مطر وراءه

(٣) الغر : من لم يُجرّب الامور

(٤) لا يحفلون : لا يبشون ولا يلتفتون ، ومثله لا يأبهون

والخائنُ والأَنانيُّ ، كلُّ أُولئكَ مَنفورٌ منه ، مَنْبِيٌّ عنه [١] .
وما ذلك إلاَّ لفقدِ الثِّقةِ به من النُّفوس .

فالمُخادعُ يُريدُ بكَ المَكروهَ من حيثُ لا تَعلَمُ ؛ وهو يُظهِرُ لكَ الحُبَّ وإرادةَ الخَيرِ . فمتى عَلِمتَ بِخَتْلِهِ [٢] ومَكْرِهِ ، نفَرْتَ منه لِضَعفِ الثِّقةِ به .

والمُرائي يُريكَ خِلافَ ما هو عليه : يكونُ فاسقاً سافلاً ، فَيُريكَ أنه صالحٌ عَليٌّ . ويكونُ دنيئاً ساقطَ الهمَّة ، فَيُريكَ أنهُ شريفُ النَّفْسِ ناهضُ العزيمة . ويكونُ آكلاً أموالَ النَّاسِ بالباطل ، فيُريك أَنهُ أمينٌ على ما يُستَودَعُهُ من مال . ويكونُ ويكون ، فَيُريك أنه على خِلاف ما يكون . ومتى عرَفتَ ما هو مُنطوٍ عليه من الأخلاق السَّافلة ، لَفَظْتَهُ لَفْظَ النَّواة [٣] ، لأَنك لا تَثِقُ به .

والمُنافِقُ كالمرائي في أنَّ كلاًّ منهما يُبطِنُ خِلافَ ما يُظهِر . إلاَّ أنَّ خُلُقَهُ أسفلُ ، لأَنَّهُ لا يكونُ قاصراً على المُنافِق والمُنافَق له . فالمُرائي يُريك ما يُريك لِتَميلَ إليه ، وتَعتَقِدَ فيه الاستقامة . والمُنافِقُ يَستُرُ اعتقادَهُ الدِّينيَّ ،

---

(١) منبي عنه : مبعود عنه
(٢) الختل : الخداع والمكر
(٣) لفظته : طرحته — والنواة : بزرة التمر ونحوه

أو الاجتماعيّ، أو السياسيّ؛ ثم هو يُصرِّح لأصحاب المذاهب المختلفة، والمشاربِ المتباينة[١]، أنَّه معهم، وأنَّ عقيدته كعقيدتهم. ورُبَّما كان لا يعتقدُ عقيدةَ أحدٍ منهم. وقد يَميلُ الى مَشرَبٍ، وهو يعلمُ أنَّ أهلَه في الضَّلال المُبين. فيُطري[٢] أُصولَه وفروعَه، ويجعلُ مُتَّبعيه في أعلى عِلِّيين[٣]. وما ذلكَ إلاَّ لمنفعةٍ مادِّيَّةٍ تجعلُه مَملُوءَ الحَقيبة[٤]. ومتى عُرِفَ أحدٌ بالنِّفاق، طرَحهُ النَّاسُ أرضاً، لِفقدانهم ثِقَتَهم به.

والكاذبُ، إمّا أن يَكذِبَ لخوفِ مكروه، أو رَجاء محبوب. وفي كِلتا الحالتين يكونُ كَذِبُه داعياً لطرحِ الثقةِ بقوله، وسبَباً لاعتقاد الكَذِبِ فيه، وإن كان صادقاً.

والطَّامعُ يسعى أن ينالَ فوقَ ما يستحِقّ، ويجتهدُ لِيَقتَطِعَ لنفسه حقَّ غيره. فهو غيرُ مأمونٍ على حقّ، ولا مركونٍ اليه في أمر. ومن كان كذلك فأنَّى للناس أن تَثِقَ!

وأمّا الخائنُ فعدَمُ الثقةِ به أمرٌ واضح. وهو فيه آكَدُ

---

(١) المتباينة : المختلفة

(٢) يطري اصوله : يبالغ في مدحها . والاطراء : المبالغة في المدح ، او الاتيان بأقصى ما عند المادح منه . يقال : اطرى فلاناً يُطريه . وقد يقال : أطرأه يطرئه — بالهمز — كما في لسان العرب والقاموس ؛ لكنه نادر

(٣) أعلى عليين : أعلى المراتب . وعليون في الاصل : اسم لأعلى الجنة

(٤) الحقيبة : خريطة يعلقها المسافر في الرحل للزاد وغيره

منه في غيره ، وأدعى للنُّفرة منه . لأنَّ الخيانةَ هي مجموعُ الخداعِ والرِّئاء والنِّفاق والكَذِب والطَّمع . هـذه هي الخيانةُ الكُبرى ، وهي المُرادةُ عندَ الإطلاق . وكلُّ واحدٍ من ذلك المجموعِ خيانةٌ ؛ لأنَّ من خادعك ، أو راءاكَ ، أو نافقَ لك ، أو كذَبَ عليك ، أو طَمِعَ في حقّك ، فقد خانك وأراك غيرَ الحق .

والأناني — وهو من لا يرى غيرَ نفسهِ — يدعوه غرورُه [1] الى التكلُّم عن نفسه بأشياء لا تنطبقُ على الواقع . وكلُّ ذي غُرورٍ معروفٌ بالمُبالغةِ والحَيدانِ عن مَنهجِ الصّوابِ [2] ، إذا قال عن نفسه شيئاً . فهو لذلك يكونُ غيرَ موثوق به ، ويكونُ كلامُهُ غيرَ واقعٍ موقِعَ القَبول .

ألاَ إنَّ مدارَ الثقةِ على أفرادِ الأُمة : فإن كان مَبلَغُهُم من الصّدق وشرَفِ النَّفسِ عظيماً ، كانت الثِّقةُ فيما بينَهم عظيمة . وإن ضَعُفَت تلك الخلالُ الفاضلةُ [3] ، ضَعُفَت الثقة ، والتَوَى نِظامُ الأعمال [4] ، وكان من وراء ذلك

---

(١) الغرور : ان يرى الانسان في نفسه من الفضائل ما ليس فيها

(٢) الحيدان : الميل والعدول — والمنهج : الطريق الواضح

(٣) الخلال : الخصال ؛ والمفرد خلة ، بفتح الخاء

(٤) التوى : صار وتعوّج

القضاء على الطُّمأنينة وسعادة الأُمة ·

الثقةُ المُتبادَلةُ عروةٌ تُعلَّقُ اليها الرَّوابطُ الاَجتماعيَّةُ والاَقتصاديَّةُ والسياسيَّة · فهي ، كما تكونُ بينَ الأفرادِ ، تكونُ بينَ الجماعات · وكما تكونُ بينَ الجماعات تكون بينَ الأُمَمِ والدِّوَلِ [1] · وبانحلالها تَنحَلُّ تلك الرَّوابط ، وتَختَلُّ أناظيمُ الاَجتماع [2] ·

تَعَوَّدُوا ، مَعشرَ الناشئين ، صِدْقَ القولِ والعمل ، وألزِمُوا أنفُسَكم الإباءَ [3] والإيفاءَ بالوَعد ، تكُنِ الثقةُ بكم طَوْعَ يَمينِكم · ومتى نِلْتُم ثِقَةَ النَّاسِ بكم ، كنتم من المُفْلِحين · وإياكم أن تُضعِفُوها ؛ فإنَّكم بالثقةِ تَعيشون ·

---

(١) الدول ، بكسر الدال وفتح الواو : جمع دولة ، بفتح فسكون · ومعناها السياسي معروف · واصلها دولة الحرب ، وهو ان تدال احدى الفئتين على الأُخرى · يقال : كانت لنا عليهم الدولة · واما الدُّوَل ، بضم ففتح ، فهي جمع دُولة ، بضم فسكون ، ومعناها ما يُتداوَل بين الناس ، يكون لهؤلاء تارة ولهؤلاء تارة أُخرى

(٢) الاناظيم : جمع نظام

(٣) الاباء : الامتناع مما يعيب

الحسد

كِبارُ النُّفوسِ لا يَحسُدُون ؛ لأَنَّ الحسَدَ من صِغَر النَّفس ، وضَعفِ الإِرادة ، ولُؤمِ الطَّبع . والعظيمُ الأَبيُّ من بَعُدَتِ المَساوِفُ[1] بينَهُ وبينَ هذه الأَخلاقِ الوَضيعة .

من الكَلِمات السائرة : « الحَسُودُ لا يَسُودُ » . وهي كلمةٌ — لو تَعلَمُونَ — عظيمةٌ ، تَتَضمَّنُ مَعانيَ كبيرة . وهي ، إن صَغُرَ لفظُها ، فقد كَبُرَ معناها ، وشَرُفَ فَحواها .

الحسُودُ يكونُ ضَيِّقَ الخُلُق ، مُنقَبِضَ الصَّدر ، مُضطَرِبَ الفِكر . إن رأى ذا نِعمةٍ ، أو شاهدَ أحداً نال في النَّاس مَقاماً رفيعاً هو أهلٌ له ، وَدَّ لو تُحوَّلُ تلك النِّعمةُ اليه ، ويكونُ ذلك المَقامُ طَوْعَ يدَيه ، وإن نال الشقاء من أصحابها مَنالَهُ .

التَّمنِّي — كما يقولون — رأسُ مالِ المُفلِسِ . وأنَّى لَمَنْ خلا من الإِرادة ، وعِزَّةِ النَّفس ، وكَرَمِ الطَّبع ، أن ينالَ المقامَ المحمود ، أو يَصِلَ الى نِعمة المَحسُودِ ! فهو بذلك التَّمنِّي السافلِ لا يستطيعُ أن يُحوِّلَ اليه نِعمةً أنعمها الله على عبده ،

---

(١) الأَبي : الممتنع مما يعيبه — والمساوف : جمع مسافة

ولا أن يغتصب مقاماً لغيره، فيوسّد إليه (١) . بل يبقى — كما كان — قليلَ النعمة، سافلَ المقام، دنيء النفس، وضيعَ القدر. وهل يمكنُ من كان كذلك أن يقبض على ناصية السؤدد (٢)، أو يجولَ في ميدان الشرف!؟ لا وربّ الكعبة. فإنهُ بتلك الأخلاق لا يسود، ولو عكفَ على حسدِه أبدَ الدهر.

أما الكبيرُ النفس، فهو إن بصرَ في غيره بأمرٍ يُثنى به عليه، أو رآهُ في منزلةٍ يُغبطُ عليها (٣)، فلا يجولُ في وهمِه أن يحسُدَهُ على نعمته، أو يحطّ من منزلته. بل يسعى كلّ السعي لينالَ مثلَ منالِه، ويرقى مثلَ رقيِّه. فإن زاد فيه الإباء، فلا يرضى لنفسه إلاّ بما فوقَ ذلك المقام، ولا يختارُ لها إلاّ أرضى من تلك النعمة.

وضاعةُ النفسِ تدفعُ الإنسانَ الى أن يتمنّى زوالَ النعمةِ عن غيره لتكونَ له. وإباؤُها يحفزُهُ الى العمل (٤)، ليفوزَ بالحسنى؛ ويأبى عليه أن يريدَ بغيره السوء، ليكونَ

---

(١) يوسد اليه : يسند اليه

(٢) الناصية : مقدم الرأس. ويراد بالقبض على ناصية الامر التمكن منه — والسؤدد : الشرف

(٣) الغبطة : ان تتمنى ان يكون لك من المجد والغنى ونحوهما مثل ما لغيرك، مع بقاء نعمته عليه. اما الحسد فهو تمني زوال النعمة عن المحسود لتكون للحاسد

(٤) يحفزه : يدفعه

له الخير . فالفَرقُ بينَ الخُلُقين عظيم .

وقد عَلِمتَ بما شرحناه معنى قولِهم : « الحَسُودُ لا يَسُود » ؟ لأنَّ من أخلاق الحسود ضَعفَ الإرادة ، وصِغَرَ النفس ، والجُبنَ عن الإقدام على عمل السادة . وأحرِ بِمَنْ كان كذلك أن لا يكون سَيِّداً . فالسِّيادةُ وهذه الأخلاقُ على طرَفيْ نقيض .

عجيبٌ ، والله ، أن يَتمنَّى المَرْءُ ما لا يكونُ إلاّ بِجِدٍّ وعمل — وهو كَسُولٌ خامل مُهمِل — وأن يرجوَ ما لا يَكسِبُهُ إلاّ الحسرَة ، ولا يَعودُ عليه إلاّ بانقباض الصدر . وهذه صِفَةُ الحاسدين . فاحذَرْ ، أيُّها الناشِئُ ، أن تكون من الجاهلين .

رُبَّما تَبلُغُ نارُ الحسدِ بالحاسد حدّاً يَدفعهُ الى إيذاء محسوده ، والسَّعيِ في ضَرَرِه ، وبذلِ الجُهدِ لإيصال ضُرُوبِ الشَّرِّ اليه . وإنَّما يعملُ ذلك ثائراً لنفسه الوَضِيعة ، ظاناً أن هذا العملَ يُطفِئُ جمرةَ طبعهِ اللَّئيم .

ومتى بَلَغَ الحسَدُ بالحاسد هذا المَبلَغَ ، كان وحشاً ضارياً ، وأفعَى في أنيابها السُّمُّ ناقعٌ[1] . وكثيراً ما يَعُودُ الضرَرُ عليه ، فيموتُ بِغَيظِه ، ويُحرَقُ بنار حِقدِه .

---

(١) الافعى : الحية العظيمة — وناقع : مجتمع ثابت . وسم ناقع : بالغ اثل

أَلاَ إِنَّ الحَسَدَ كان فيما مَضَى أَكبرَ أَدوائنا[1] ، التي قضت على مجدنا ومَدَنيّتنا . وأَراهُ اليومَ أَفتكَ وَباء فاشٍ في مُجتمعنا . فلا ترى أحداً يقُومُ بما فيه صلاحٌ للبلاد ، ومنفعةٌ للأُمة ، إلاَّ وجدتَ إزاءهُ من المُقاومين الجَمَّ الغفير[2] ، حَسَداً من عندِ أَنفُسِهم ، وبَغياً على الحقّ . فإن لم نترُك هذا الطَّبعَ اللَّئيم ، فلا رجاء للخير ، ولا سَبيلَ الى السَّعادة .

تجنَّبْ ، أيُّها النَّاشئُ ، الحَسدَ ؛ فإنهُ من خُلُق الأَدنياء ، وصِفَةِ الجُهلاء . فإن بَصُرتَ بقائمٍ بالحقّ فأَعضُدْهُ[3] ، ويَسِّرْ لهُ السبيل . وإن رأيتَ نِعمةً أَسبغها اللهُ[4] على عبدٍ من عِباده ، فأَسعَ الى مِثلها بِقلبٍ طاهرٍ ووجدانٍ نَقِيّ ؛ فإنك تَبلُغُها بإذن الله .

وإيَّاكَ أَن يَحمِلَكَ الحسدُ على مُناوأَته[5] ؛ فإنَّكَ لا تَنالُ منهُ ما تُريدُ . بل رُبّما وَقعتَ في حبائلِ حَسَدِك[6] . وقد قيل : « للهِ درُّ الحسَدِ ما أَعدَلَهُ ! بَدَأَ بصاحبه فقتَلَهُ ! » .

---

(١) الادواء : جمع داء (٢) الجم الغفير : العدد الكثير

(٣) اعضده : أعنه وانصره ؛ يقال : عضدَه اذا نصره واعانه . ولا يقال عضّده — بتشديد الضاد — بهذا المعنى .

(٤) اسبغها : اتمها (٥) المناوأة : المعاداة والمناكسة

(٦) الحبائل : المصايد ؛ والمفرد حبالة ، ويراد بها المكيدة كما هي هنا

التعاون

كُنْ عوناً لغيرك ، يَكُنْ غيرُكَ عوناً لك . وأَحِبِّ الخيرَ له ، يُحِبِّ الخيرَ لك . فالتَّعاوُنُ من الأُمور التي يَتَبادَلُها النَّاسُ . وقَلَّ من لا يُريدُ لكَ السَّعادة ، ولا يُقْدِمُ على إعانتِك ، إذا عَرَفَ منك أَنَّكَ تَوَدُّ له ذاك ، وتُسْرِعُ لِمَعُونته إن دَعَتِ الحاجة اليها . اَللَّهُمَّ إلا إنْ كان ممَّن فَسَدَت أخلاقُهم ، وسَفُلَتْ تربيتُهم . فكانَ مِمَّن يُغْضُون [1] عن مُقابلة المُحْسِن بالإحسانِ ؛ فلا يَمُدُّون اليه يَدَ المساعدة ، ولا يَنظُرون اليه بِطَرْفِ المُروءَة [2] .

وكثيراً ما يَدفعُ اللُّؤْمُ بهذا الصِّنفِ من الناس الى أن يَجْزُوا من الحَسَنة السَّيِّئةَ ، ويَستبدِلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير . ومن فعلَ ذلك كان مِمَّن صَدَقَ عليه الأَثَرُ : « اتَّقِ شرَّ من أحسنتَ اليه » .

أَقَلُّ مَراتبِ التَّعاوُنِ أن نُعينَ غيرَك حِرْصاً على أن

---

(١) اغضى عن الامر وتغاضى عنه : تغافل عنه

(٢) الطرف : العين — والمروءة : النخوة وكمال الرجولية

تُعانَ ، متى أحتجتَ الى المعُونة . وأكملُ تلك المَراتبِ أن تندفعَ في هذا الأمر ، وأنت غيرُ آملٍ منه فائدة ، ولا راجٍ منه عائدة[1] . بل إنّكَ تُقدمُ عليه لأنه فضيلةٌ في نفسه ، وأثرٌ صالحٌ يحتذي الناسُ مِثالَهُ[2] ، لِتَنموَ رُوحُ التّعاوُن بينَ الأُمة ؛ فيكونَ من وراء نُمُوّها أجتماعُ القلوب ، وأئتلافُ المجموع ، وأتّحادُ الأفكار ، وتقارُبُ المُيول .

إنّ من تُحسِنُ اليه تكونُ قد نَقَشْتَ في قلبه مَحَبّةً لا تَمحُوها إلاّ الإِساءةُ . والكريمُ لا يُسيءُ بعدَ الإِحسان .

وإن أحسنتَ الى الأُمةِ كلّها ، فقد أقمتَ في كل فؤاد من أفئدةِ أبنائها تِمثالاً من المِقَة[3] ، ومِحرابًا من المحبّة[4] ، يَبقيانِ ما بَقِيَتِ الأُمة .

أفرادُ الأُمةِ يحتاجُ كلُّ واحدٍ منهم الى الآخر . فإن سلَكُوا سبيلَ التّعاوُن ، ونصرَ القويُّ منهمُ الضّعيفَ ، وخفّفَ الغنيُّ آلامَ الفقير ، وعلّمَ العالمُ الجاهل ، وأرشدَ المهتدِي

---

(١) العائدة : الفائدة تعود على الانسان

(٢) يحتذون مثاله : يقتدون به ويصنعون مثله

(٣) المقة : المحبة

(٤) المحراب : الغرفة ، وصدر المجلس ، وصدر البيت ، واكرم شيء فيه ؛ ومنه محراب المسجد ، وهو مقام الامام فيه

الضَّالّ ، وأحبّ كلُّ فردٍ لغيره ما يُحِبُّهُ لنفسه ، كان من وراء ذلك سعادةُ المجموع ، ونُهوضُ الأُمّةِ من عَثْرة التَّخاذُل ، وتَنَبُّهُها من فِراش الغَفْلة ، وبَعثُها من مرْقَد الخُمول [١] .

وليس التَّعاوُنُ قاصراً على الأُمور المادّيّة فَحَسْبُ [٢] ؛ بل هو عامّ شاملٌ للأُمور المعنويةِ أيضاً . وهو فيها آكدُ منه في غيرها .

إن رأيتَ حائراً في أمره ، فأعِنْهُ بثاقب فِكرِك [٣] ، وأوضِح له طريقَ رُشده .

وإن وجدتَ محزوناً فخفِّفْ عنه حُزنَهُ ، بما تُلقيهِ عليه من دُرُوسِ التسلية ، وما تُروِّحُ به الهمّ عنه من كلماتِ التَّفريجِ ؛ حتى تُسرِّيَ عنه ما ألمّ به [٤] من همٍّ وحزن .

وإذا ألفيتَ [٥] حائداً عن سبيل الهُدَى ، سالكاً طريقَ الرَّدَى ، تائهاً في مَفاوِز العَمَى [٦] ، فابذُلِ الجُهْدَ لإرشاده

(١) المرقد : مكان الرقود ، وهو النوم

(٢) حسب : كافٍ ؛ يقال : فلان صديقي فحسب ، اي يكفيني عن غيره ؛ والفاء في « فحسب » زائدة لتزيين اللفظ

(٣) الفكر الثاقب : الوقاد المشتعل

(٤) سرّى عنه الهم : فرّجه عنه — وألمّ به : نزل به

(٥) الفيت : وجدت

(٦) المفاوز : جمع مفازة ، وهي القفر الخالي

بِلَيِّنِ الكلام ، والمَوعظةِ الحسنةِ ، والمَعروفِ من القول ، حتى تَحمِلَهُ على سُلوك الصّراط المُستقيم [١] ، والتَّجَمُّلِ بالخُلُق الكريم .

على هذا دَرَجَ [٢] السَّلَفُ الصّالح ، وفي سُنَّةِ [٣] التَّعاونِ الماديِّ والمعنويِّ قد سَلَكُوا . وما ضَرَّنا ، وضَرَّ الأُمَمَ قبلَنا ، إلاَّ إهمالُ هذا الرُّكن الاجتماعيِّ الرَّكين [٤] . فقد استبدلوا به قلوباً أصلبَ من الجَلْمَد [٥] ، وأخلاقاً ما لانحطاطها قَرار ؛ حتى صار أحدُنا للآخر عَقرباً لاسعة ، وأفعى لادغة . وما بهذا أُمِرنا ، ولا لِمِثْل ذلك خُلِقنا .

لم نُخلَق ، أيُّها النَّشءُ ، إلاَّ لنكونَ مُتعاونينَ على دَفعِ ما يُصيبُنا من الشَّقاء ، مُتَساندين في السَّراء والضَّراء [٦] ، عامِلينَ على محو ما يَنزِلُ بالأُمة من اللأْواء [٧] .

إنَّ الأُمةَ محتاجةٌ الى المَعُونة ؛ فمُدُّوا اليها أيدِيَكم .

---

(١) الصراط : الطريق
(٢) درج : مشى
(٣) السنة : الطريق
(٤) الركين : القوي
(٥) الجلمد : الصخر
(٦) متساندين : متعاونين يُسند كل واحد الآخر — والسراء : الرخاء - والضراء : الشدة
(٧) اللأواء : الشدة يكون منها الضرر

هيَ جاهلة ؟ فأَعِينُوها بالعلم .

هي فاسدة ؟ فأَعِينُوها بالإصلاح .

هيِ فقيرة ؟ فأَعِينُوها بِبَذْل المال ، لِتَفتَحَ به المدارس ، وتُنْشِيءَ المعاملَ والمَصانع .

فإن فَعلتُم ذلك ، كنتم أبناءَها البارّين[1] ، ورجالَها العاملين .

فَتعاوَنُوا على ذلك ؟ إنّ اللهَ يُحِبُّ المُتَعاونين .

---

(١) البار : المحسن

التقريظ[1] والانتقاد

رأيتُ كثيراً من النَّاس يَسُوءهم المدح، وإن كان بالباطل؛ ويَسُرُّهمُ الانتقاد، وإن تجسَّمَ فيه الحقُّ. وما ذلك إلاَّ من غرورِ النفسِ وولعِها بالباطل.

المغرورُ يُطرِبُهُ التقريظ، ويُرنِّحُهُ المدح[2]. فكأنَّ الثناء عليه راحٌ[3]، متى خالطَت جوفَهُ ظنَّ أنه مَلَكَ البسيطةَ ومَن عليها. وما يستحقُّ — لو أنصفَهُ مُقرِّظُهُ — غيرَ الصفعِ والقَصْع[4]. وإن انتقدَ عليه أحدٌ عملَه، وأبانَ له طريقَ الرُّشدِ فيه، عبسَ وبَسَرَ[5]، وولَّى واستكبر، واستشاط غضباً وزَمجَر[6].

أمّا العاقلُ الخبير، فلا يسرُّهُ من يمدحه؛ لأنَّ المُقرِّظَ لا يذكرُ إلاَّ حسناتِه، ويطوي كَشحاً[7] عن ذِكرِ سيِّئاته. والمرءُ أدرى بما لهُ من الحسناتِ؛ فلا يحتاجُ فيها الى

---

(١) التقريظ: المدح في حياة الممدوح بحق او باطل

(٢) يرنحه: يجعله يتمايل

(٣) الراح: الخمر

(٤) الصفع: الضرب على القفا بجمع الكف ـ والقصع: الضرب على الرأس بيسط الكف

(٥) بسر: قطب وجهه وتكرّه

(٦) استشاط: التهب واحترق — وزمجر: اكثر الصخب والصياح

(٧) طوى عن الامر كشحاً: تركه واهمله

إثبات . وإنما يلذه[1] أن يرى من به.

الصحيح . لأن المنتقد يظهر له عيوبه ، ويوضح خطاه ، وينشر ما طوي من زلاته[2] ؛ فمتى علمها أجتنبها ، وباعد ما بينه وبينها . فيطهر بذلك من وضر العيوب[3] ، وينقى من جرائر السيئات[4] . وصديقك من صدقك ، لا من صدّقك .

لولا الانتقاد لظل الناس في الغرور سادرين[5] ، وللآثام مرتكبين ، وعن الحق ضالين ، وفي كؤوس هوى النفس كارعين . فهو المنهاج الأقوم[6] ، والدليل الأقوى . وبه تتمحص الحقائق[7] ، وتظهر الفضائل ، وتخفى الأباطيل ، وتعشو عيون الأضاليل[8] .

وما من أمة طرحت عنها رداء الجهل ، وكسرت عن عقولها قيود الوهم — فتقدمت في سبيل العمران ، وبلغت من

(١) يلذه : يجعله يلتذ (٢) الزلات : السقطات (٣) الوضر : الوسخ

(٤) الجرائر : الذنوب ؛ والمفرد جريرة

(٥) السادر : الذي لايهتم ولا يبالي ما صنع ؛ وهو ايضاً المتحير

(٦) المنهاج : الطريق الواضح

(٧) تتمحص : تتنقى من الاخلاط

(٨) تعشو العيون : يسوء بصرها

المنيةَ أقـ[illegible] كان — إلاَّ كان الانتقادُ رائدَ فلاحها[2] ،
[illegible] نسمةَ نجاحها[3] . وما من قوم غرَّتهم حلاوةُ التقريظ ،
وأسكرَتهم خمرةُ المديح ، وخدَّرَت هممَهم مرافينُ الثناء[4] ،
إلاَّ ضرَبهمُ الدَّهرُ بضرباته ، ورَماهم بنكباته[5] .

والسِرُّ في ذلك ، أنَّ الانتقادَ يحفزُ الهمَّةَ[6] ؛ فيبتعدُ المرءُ عما هو فيه من سُوءِ الحال ؛ ويدفعهُ الى ميدان العمل ، ليَحمدَ المآلَ[7] . فيبذُلُ الجُهْـدَ ليكونَ من المُتقدِّمين في صالح الأعمال ، التي تُنيلُه السَّعادَتين ، وتَنفَعُهُ وأُمتَهُ في الحياتين .

أمَّا التقريظُ — وأقبحُـهُ ما كان في باطل — فهوَ يَنفُخُ في أنفِ الممدوح الغُرُور ؛ ويُدخِلُ في يافوخه[8] شيطانَ العَظَمَةِ والكِبرياء . فيظُنُّ في نفسه أنهُ بلَغَ من الكمال السَّماءَ ، حتى طال الجَوزاء[9] . فتَضعُفُ هِمَّتُهُ عن كسب الفضائل ،

---

(١) اقصى : أبعد (٢) الرائد : الدليل

(٣) النسمة : نفس الروح

(٤) المرافين : جمع مُرفين وهو شيء كالبنج ؛ وهي كلمة افرنجية عربت حديثاً

(٥) النكبات : المصائب

(٦) يحفز : يدفع ويسوق (٧) المآل : العاقبة والمرجع والمصير

(٨) اليافوخ : الموضع الذي يتحرك من الرأس عند ما يكون الانسان طفلاً ؛ وهو ما تسميه العامة « النافوخ » بالنون

(٩) الجوزاء : برج في السماء

وتَفتُرُ عزيمتُهُ عن اقتراع العظائم[١] . فلا تنمو معارفُه ومواهِبُهُ[٢] ، إن كانت له علومٌ وشمائلُ[٣] ؛ ويظلُّ جاهلاً مرذولاً ، إن كان خالياً من العلم والفضيلة .

وإنَّ هناكَ قوماً لا يَعملون ، إلاّ إذا علِموا أنَّ الناسَ يمدحون أعمالهم ، ويُقرِّظونَ إقدامَهم . وترى قوماً يزيدُهم التقريظُ همَّةً الى همتهم ، ونفاذاً في الأمر على نفاذِهم فيه ؛ فلا بأسَ بتقريظ عملِهم ، والثناء عليهم ، ليَزدادُوا إقداماً معَ إقدامهم

ونحنُ لم نذُمَّ التقريظَ مطلَقاً ؛ بل ذمَمْنا من يُريدُ من غيره أن يُقرِّظهُ بحقّ أو باطل ، ويَسُوءُه منه أن يَنتقدَ عليه عملَهُ ، إن فعل مالا يُسكَتُ عنه . ومن كان كذلك فهو من الذين يُحِبُّونَ أن يُحمَدوا بما لم يفعلوا . وأولئك هم في مَجْهَلٍ[٤] من سفالة الأخلاق ، يَهلِكُ فيه المَغرورونَ . فمن سرَّهُ التقريظُ فلا يَسُوءْهُ الانتقاد . فالتقريظُ إن كان داعياً للإقدام على العمل الطيِّب ، فالانتقادُ يربأُ بالانسان ان يردَ مواردَ الخطل[٥] ،

---

(١) اقتراع العظائم : الغلبة عليها

(٢) المواهب : العطايا ؛ والمراد بها هنا الصفات الغريزية لانها هبة من الله للانسان

(٣) الشمائل : الاخلاق ؛ والمفرد شمال — بكسر الشين —

(٤) المجهل : الارض التي لا يهتدى فيها

(٥) يربأ به : يرفعه وينهض به — والخطل : المنطق الفاسد

أَو يَسْقُطَ في مزالِقِ الزَّلل[1] .

وما الأَمرُ بِالمَعروف والنَّهْيُ عن المُنكَر ، الاَّ ضربٌ[2] من ضروب الانتقاد . ولولاهُما لَظَلَّ الجاهل الفاسدُ سادراً في غُلَوائه[3] ، ناشراً للفُسوق عن الحقّ[4] كبيرَ لِوائه .

وبعدُ ، فإِنَّ فِئَةً من الناس قد اتخذت الانتقادَ ذريعةً للنَّيلِ من الخَلق[5] ، وحِجَّةً للوَقيعة في أَعراضهم[6] . فراشُوا سِهامَ السِّباب[7] والفُحشِ من القول ، ورَموْا بها من أَرادوا أَن يَنتقدوه . فتراهم لا يَترُكونَ شاردةً من السَّفاهة والبَذاء[8] والمُنكَر من الكلام إِلاَّ وَجَّهوها اليه . وما هذا بالانتقاد ؛ وإِنَّما هو التَّشَفّي والتَّقريع[9] . وذلك لُؤْمٌ

(١) المزالق : الاماكن التي تزلق فيها الارجل — والزلل : الخطأ والانحراف عن الصواب

(٢) الضرب : النوع

(٣) السادر : الذي لايهتم ولا يبالي بما صنع ، والذاهب عن الشيء ترفعاً عنه — والغلواء : الغلو ، واول الشباب . والسادر في غلوائه : هو الذي يمشي كما تأمره النفس الامارة بالسوء غير مهتم بالعواقب

(٤) الفسوق عن الحق : الخروج عنه والعدول عنه

(٥) ذريعة : وسيلة وواسطة — ونال منه نيلاً : سبه وشتمه

(٦) الوقيعة : السب والشتم . وقع فيه : سبه وعابه

(٧) ريش السهام : كناية عن التهيوء للرمي

(٨) البذاء : التكلم بفحش القول

(٩) التشفي : الانتقام — والتقريع : التعنيف والاغلاظ

وخِسَّةُ طَبْعٍ يَتجافى[1] عنها أُولو المُروءَة .

إنَّ الغايةَ من الانتقاد صرفُ المُنتَقَدِ عليه عمّا هو فيه من جهلٍ أو خطأ . فالتسرُّعُ في الانتقاد ، وتركُ الرِّفقِ فيه ، داعيان لتعصُّبِهِ لِما هو فيه ، وإن وَضَحَ له الأمرُ أيَّما وُضوح . وقد وَرَدَ : « من أَمرَ بمعروفٍ فليكُنْ أمرُهُ بمعروف » . فالنَّقدُ يَجِبُ أن يكونَ بالتي هي أحسنُ ؛ ليكونَ من ورائه نجاحُ القَصْد وفلاحُ السَّعي : « ولا تَسْتَوي الحَسَنَةُ ولا السَّيِّئةُ ، ادْفعْ بالتي هِيَ أحسنُ ؛ فإذا الذي بَيْنَكَ وبينَهُ عداوةٌ كأنَّهُ وَليٌّ حميمٌ[2] . وما يُلَقَّاها إلاَّ الذينَ صَبَرُوا ؛ وما يُلَقَّاها إلاَّ ذو حظٍّ عظيم » .

لا تَغُرَّنكُم ، معشرَ النَّاشئين ، أقوالُ المُحَبِّذينَ[3] ، ولا كَلِماتُ المُقَرِّظين ؛ فكثيراً ما يَقولون غيرَ الحقِّ ، طَمَعاً في اكتساب قلوبِ المُقَرَّظين ، أو في دُرَيْهِماتٍ تَسقُطُ من أيديهم عليهم .

وإياكم أن تسلُكُوا هذا الطَّريق ؛ فهوَ يُؤَدِّي إلى الكَذِب

(١) يتجافى : يترفع ويتنحى

(٢) الولي : الناصر ، والصديق ، والمحب — والحميم : الصديق كل الصديق

(٣) المحبذ : من يقول لك : حبذا ما تفعل ، يمدح عملك

وما أقبحَ ذنبَ الكاذبين ! وتمسَّكوا بأذيال مَنْ يَنْتقِدُ عليكم أعمالَكُم ، ويُبيِّنُ خطأَكم ، تُرْشَدُوا الى أقوم سبيل .

وإن رأيتم من غيركم ما يُنْتَقَدُ ، فَسَدِّدوا خُطُواتِه [1] ، وانصحُوا له بالإقلاع عن زَلاّته [2] ، بالكَلِمِ الطَّيِّبِ والمعروفِ من القول .

وإياكم إن تَستعمِلوا خُشونةَ الكلام ؛ فإنها أوخزُ من السِّهام [3] ، وأشدُّ من وَقْع الحُسام [4] . وهي مُضَيِّعةٌ للفائدة ، مُنفِّرةٌ للقلوب .

بل كونوا من أهل اللِّينِ والرِّفق ، تنالُوا ما تُريدون . وقد قيلَ : « الماءُ معَ رِقَّتِه ، يقطَعُ الحجرَ معَ شِدَّته » . وقد خاطبَ اللهُ نبيَّيْهِ - هرونَ وموسى - في شأن فِرْعونَ بقوله : « اذهبا الى فِرْعونَ إنه طغى [5] ؛ فقولا له قولاً ليِّناً ؛ لعلَّه يَتذكَّرُ أو يخشى [6] » .

---

(١) سددوا خطواته : ارشدوه الى السداد والاستقامة

(٢) الاقلاع : الابتعاد والترك — والزلات : الخطيئات

(٣) اوخز : أشد وخزاً ؛ والوخز : الطعن بالرمح والابرة ونحوهما — والسهام : النبال

(٤) وقع الحسام : شدة ضربته — والحسام : السيف القاطع

(٥) طغى : جاوز الحد

(٦) يخشى : يخاف

التعصب [1]

تعصَّبْ لجنسِكَ ولُغَتِك ودينِكَ ومَذهبِكَ الاجتماعيِّ ونِحْلَتِكَ [2] السياسيَّة ، ولا يَسُوءْكَ من غيرِك هذا التَّعصُّبُ . بل دَعْ كلَّ إنسانٍ ومُعتقَدَه ؛ فلَسْتَ على أحدٍ بمُسَيْطِرٍ [3] . وكلُّ أمرِئٍ حرٌّ في أن يَدِينَ بما يشاءُ ، وأن يتَعصَّبَ لِما يُريد .

بهذا قضَتِ الأديانُ ، وحكَمَتِ المذاهِبُ الاجتماعيَّةُ الصحيحة . وفي هـذهِ السَّبيلِ سارَ المُتَمدِّنون من الأُممِ ، كما سارَ آباؤُكَ ، أيُّها النَّاشِئُ ، من قَبْلُ .

التَّعصُّبُ شيءٌ جميلٌ ، ومَذهبٌ قويمٌ ، وسُنَّةٌ واضحةٌ [4] ، ومَنْهجٌ سَديدٌ [5] . فهو الذي يَحفَظُ على الأُمة لُغتَها وجِنسيَّتَها

---

(١) التعصب : التشدد . تعصب في دينه ولغته : كان شديداً فيهما ، غيوراً عليهما ، مدافعاً عنهما . وتعصب لفلان ومع فلان : مال اليه وانتصر له . وتعصب عليه : قاومه ومال عليه

(٢) النحلة : المذهب والعقيدة

(٣) المسيطر : الرقيب الحافظ ، والمتسلط على الشيء ليشرف عليه ويتعهد احواله ويكتب عمله . فكأنه مأخوذ من سطر يسطر سطراً بمعنى كتب

(٤) السنة : الطريقة

(٥) المنهج : الطريق الواضح — والسديد : القويم

وأخلاقها الفاضلة وعاداتها الطيبة ؛ ويحملها على أن نكون شديدة البأس [1] ، قوية الساعد ، منيعة الجانب . ومتى فقدت هذا الخلق — خلق التعصب الكريم ، بما طرأ عليها من فساد التربية — أضاعت مميزاتها ، وخسرت قوتها وبأسها ؛ فكانت مع الهالكين ، والذاهبين الأولين . وما هلاكها إلا موت الشعور ، وفساد الأخلاق ، وذهاب المميزات . وإنما الأمم الأخلاق .

تعصبك لدينك يدعو غيرك أن يرعى حرمتك ؛ وعدم الاكتراث له يحمله على أن لا يعبأ بك [2] .

ومعنى التعصب للدين القيام بفروضه ، وانتهاج سننه [3] ، واتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، والتخلق بالأخلاق الجميلة ، التي يحفز [4] التدين الهمم إليها .

وليس معناه أن تكره غيرك ، ممن ليس على دينك ،

---

(١) البأس : القوة ، والشدة ، والشجاعة

(٢) اكترث له وعبأ به : اهتم به وبالاه

(٣) الانتهاج : السلوك — والسنن : جمع سنة وهي الطريق . والسنة في الدين : ما كانت دون الفرض

(٤) يحفز : يدفع ويسوق

وَنَصبَ الحبائلَ[١] للضَّرَرِ به ، وتَبذُلَ الجُهْدَ لِتُلحِقَ به الأَذَى والمكروه . فإنَّ هذا ليس من التَّعصُّبِ للدِّين في شيء . وإنَّما هو تَعَصُّبٌ للوَحشيَّة على المدنيَّة ، وضَربٌ من ضُروبِ الهَمَجيَّة ؛ لأنَّ كُرْهَ المُخالِف في الدِّين ، وإلحاقَ الأَذَى به ، عملُ من لم يَعرِف من الدِّين إلاَّ الانتسابَ اليه . فالدِّينُ وهذا العمل على طَرَفَيْ نقيض[٢] .

أمَّا ما يَفعَلُه بعضُ من لا خَلاقَ لهم[٣] ، ممَّن لَبِسُوا الدِّينَ مَقلوبًا ، فهؤلاء لَيْسُوا في العِير ولا في النَّفير[٤] . وما هُم بِحُجَّةٍ على الدِّين . بل للهِ الحُجَّةُ البالغةُ[٥] . وليس في دين الله شيءٌ مِما يَزعُمون .

إنَّ من يَدَّعون التَّعصُّبَ للدِّين ، أَكثرُهم لا يَعقِلون . ولا يعرفون منه إلاَّ أنَّ آباءهم كانوا به يَدِينُون . فهم في ظاهر الأمر مُتَدَيِّنون . وما هُم في الحقيقة إلاَّ مُقَلِّدُون ؛ يلُوكونَ من الكلام ما لا يَفهَمون ، ويَنتَسِبُون الى ما لا يَفقَهون[٦] ،

---

(١) الحبائل : المكايد ؛ وأصل معناها : المصايد

(٢) على طرفي نقيض : أي هما متخالفان

(٣) الخلاق : النصيب الوافر من الخير

(٤) ليسوا في العير ولا في النفير : أي ليسوا ممن يعبأ بهم

(٥) الحجة البالغة : الدليل الذي يحمل على الخضوع

(٦) يفقهون : يعلمون ويفهمون

ويُبغِضون من لا يدينُ بدينهم ويكرهون ، مُعتقدينَ أنهم بِمثل هذا يَنجُون ، والى الله يتقرَّبون . ألاَ ساء ما يَزِرُون[1] ، وقُبحَ ما يفعلون .

وهُناك طائفةٌ ليست من العامّة الجاهلة ، ولا من الخاصّة الراقية ، تزعُمُ التعصُّبَ للدِّين ؛ وهي لا تقومُ بشعائره[2] ، ولا تتمسَّكُ بِسُنَنِهِ وفرائضه ، وتدعو النَّاسَ بأسمه . وربما كانت جَعبَةُ عقيدتِها[3] أفرغَ من جوفِ الطَّبلِ .

وما التَّعصُّبِ للدِّين — كما أسلفْنا — إلاّ التخلُّقُ بأخلاقه ، والقيامُ بما يأمرُ به ، والبُعدُ عمَّا يَنهى عنه . فهُم يَغرُّون العامَّة ، ليُغرِّرُوا بعقُولها[4] . وهذه الطائفةُ أيضاً ليست حُجَّةً على الدِّين ؛ لأنها تدعوا بأسمه رجاءَ المنفعةِ الخاصّة ، ونُفُرُ السُّذَّجَ ممَّن لا يَدينُ بِدينِهم ، بُغيةَ السَّيطرةِ على عقولهم ، وأملاً بالسُّلْطةِ على أرواحهم . واللهُ بريءٌ منها ومن أعمالها .

. . . .

---

(١) يزرون : يحملون ؛ والمراد ما يحملون من اثقال هذه الاعمال المخالفة للدين ؛ والماضي وَزَرَ ، والوِزر ـ بالكسر : الحمل الثقيل ، والذنب

(٢) شعائر الدين: اعماله التي تقرب الى الله ؛ والمفرد شعيرة . والشعيرة ايضاً : العلامة

(٣) جعبة عقيدتها : وعاؤها . والجعبة في الاصل : وعاء السهام

(٤) غرر به : عرّضه للهلكة

وتَعَصُّبُكَ لجنسِكَ ولُغَتِكَ، يجعلُكَ مَرهوبَ البأسِ[1] عندَ غيرِكَ، رفيعَ المنزلةِ لدَيه. واحتقارُكَ إيّاهُما يدَعُك مَسخُوراً بكَ[2] عندَ من لا تجمعُكَ وإيّاه لُغَة، ولا تضُمُّكُما جنسيَّة. وهذا أمرٌ واضحٌ لا يحتاجُ الى بُرهان.

وكما أنَّ تفسيرَ التعصُّبِ للدِّين على غيرِ وجهه أمرٌ مذمومٌ — كما عَلِمتَ — فكذلك تفسيرُهُ، في مقامِ الجنسيَّةِ واللغة — باحتقارِ لُغاتِ النَّاس وجنسيَّاتهم، وإلحاقِ الأذى والمكروهِ بهم — أمرٌ لا يتَّفقُ مع التَّعصُّبِ المحمود، ولا يجري مع الحقِّ في مَيدان. فعليكَ، أيُّها النَّاشيء، أن تحترمَ لُغَةَ غيرِكَ وقوميَّتَه، كما تُحِبُّ منه أن يحترمَ منكَ ذلك.

وتَعَصُّبُكَ لِمَا تراه حقاً — من المذاهبِ السِّياسيَّة والاجتماعيَّة — ومُناضلتُكَ عنه[3]، أمرٌ يدعوكَ اليه الواجبُ، ويَطلُبُهُ منكَ الوجدان. فناضِلْ عن ذلك بالبُرهانِ السَّاطعِ[4]،

---

(١) مرهوب: مخوف — والبأس: الشدة، والشجاعة، والقوة

(٢) مسخوراً بك: مستهزأً بك

(٣) المناضلة: المدافعة والمحاماة

(٤) البرهان: الدليل والحجة — والساطع: اللامع. وأصل معنى السطوع: الارتفاع والانتشار

والدّليلِ القاطع ، والحُجّة القامعة [١] ، والمجادلةِ النافعة . وأربأ بنفسك [٢] أن ترِد موارد الشَّطط [٣] في القول ، وأن تلج [٤] – للتوصّلِ الى بُغيتك – أبواب الفُحش والبَذاء [٥] . فإنّ لغيرك رأياً يجبُ أن يُحترَم ، ومذهباً يُحبُّ تعزيرَه [٦] ؛ كما تُحبُّ تعزيزَ رأيك واحترامَ مذهبك . فإن استطعتَ أن ترجِعه [٧] عن مذهبه الى مذهبك بالحُجّةِ البالغة ، والبُرهان الدّامغِ [٨] ، واللّينِ من القول ، فافعلْ . وإلاّ فدَعْهُ وشأنَهُ ، فلستَ عليه بمُسَيطِر .

واحذَرْ أن تتّخذ تعصّبك ذريعةً للانتقام [٩] ؛ فليس هذا من شأن الكرام . ولا تدَعِ الاختلافَ في الرأي ، والتفرّقَ في الدّين أو الجنس أو اللُّغة ، ينهشانِ جسمَ الاجتماع ،

---

(١) القامعة : القاهرة المذللة

(٢) اربأ بنفسك : ارفعها ونزهها

(٣) الشطط : مجاوزة الحد

(٤) تلج : تدخل

(٥) الفحش والبذاء : قبيح القول

(٦) تعزيره : تقويته وتشديده

(٧) رجعه يرجعه — بوزن ضربه يضربه . وقد يقال : أرجعه

(٨) الدامغ : القاهر الذي يبطل حجة الخصم ؛ وأصله من الدمغ وهو شج الرأس حتى تبلغ الشجة الدماغ

(٩) ذريعة : وسيلة

وَيَفْرِيانِ إهابَ المدنيَّة (١) ، ويُمزِّقانِ شَمْلَ الإنسانيَّة ؛ خُصُوصاً إذا كانَ الاختلافُ مع أبناءِ الأُمةِ الواحدة ، والوطنِ السِّياسيِّ الواحد .

فإلى التعصُّب الحميد ، أيها النَّاشئ ، أدعوك ؛ فإنَّه رسولُ السَّعادة ، وبريدُ التَّرقِّي (٢) .

فتَعَصَّبْ لِمَا تعتقدُ أنهُ الحقُّ ، وتَمَسَّكَ بدينك وقوميَّتك ولُغَتك — على الوجهِ الذي شرَحتُهُ لك — تَكُنْ من المُفْلِحين .



(١) يفريان : يشقان ويقطعان — والاهاب : الجلد

(٢) البريد : الرسول

وَرَثة الارض

من أصلحَ أمراً كان صالحاً لأن يُهيمِنَ عليه[1] ؛ وإن لم يُورِّثه إيّاهُ آباؤهُ وأجدادُه . ومن أفسدَه أفلتَ من يدِهِ وصار الى غيره ؛ وإن كان بيَدِهِ صُكوكٌ[2] تُثبتُ وراثتَه إيّاهُ ، وشُهودٌ عدْلٌ يُقرّون أنه مِلكُهُ .

كلُّ ما في الوُجودِ مِلكٌ للهِ يُصرِّفهُ كيف يشاء ، ويَصرِفُهُ عمّن شاء الى من شاء . وقد علّقَ اللهُ سبحانَه مشيئَهُ على وُجودِ أسبابٍ تدعو الى ذلك . فمَن سَعى لهذه الأسباب سَعْيَها ، ودخلَ البُيوتَ من أبوابها ، كانَ أحقَّ بوِراثةِ الأمرِ مِمّن لا يَصْلُحُ له .

الأُممُ ، على هذهِ البَسيطة ، خَدَمةٌ للهِ فيها ؛ وأُجراء يعملُونَ لِعُمرانها . فمن كان صالحاً لهذه الخدمةِ ، أفسحَ لهُ في

---

(١) يهيمن : يراقب ويحافظ . والمهيمن : الرقيب ؛ وهو من اسماء الله ايضاً لانه قائم حفيظ على خلقه واعمالهم وارزاقهم وآجالهم

(٢) الصكوك : جمع صك وهو الكتاب ، وكتاب الاقرار بالمال او غيره . ومن الغريب ان الافرنج اخذوا هذه الكلمة من لغتنا الى لغتهم مصحفة فقالوا « شك » . ونحن اليوم اخذناها عنهم بتصحيفها ، واستعملناها في مصالحنا التجارية وغيرها . وحبذا لو نرجع الى تراث آبائنا في الاقوال والافعال

الولاية عليها ؛ ومن أساء أنتزعها منه قسراً [1] .

إذا أستخدمت أحداً ليعمل لك شيئاً ، فإنك تراقبه مراقبة تامة . فإن رأيته قد أحسن الخدمة أبقيته على عمله ، وإن زاد في الإحسان زدته في الأجر . وإن بصرت به قد أساء وشوه ما تريد تحسينه ، أنذرته بادئ ذي بدأة ؛ حتى إذا لم يبق لك أمل في تجويده العمل ، أنتزعت ما كان في يده من عملك ، وطردته من خدمتك . وتكون قد أحسنت فيما فعلت كل الإحسان . وإن تغافلت عن إساءته ، أو لم تدرك فساد صنعه ، كانت عاقبة أمرك الخسران ، ونهاية مصلحتك الخراب . ولا يرضى بذلك إلا من سفه نفسه .

الإنسان خليفة الله في الأرض ؛ واليه وكل [2] أمر عمرانها وتجويدها .

فإن أحسن السير في مناكبها [3] — فدبر شئونها ، وعمر أقطارها ، وأستخرج خيراتها ، وأثار كامن

(١) قسراً : قهراً

(٢) وكل : سلم

(٣) مناكب الارض : نواحيها وجوانبها وطرقها

ثروتِها[١] ، وسارَ في مَناهِجِ العدْلِ فيها[٢] ، ونَشَرَ العِلمَ الصَّحيحَ بينَ سُكَّانِها ، ولم يَحِدْ عن العمل بالأناظيم[٣] التي سَنَّها الخالقُ سُبحانَهُ — كانَ خليفتَهُ فيهـا حقاً ، وظلَّ بيدِهِ زِمامُ أعمالِها .

وإن أساءَ السِّيرَةَ ، ولم يُحسِنِ القيامَ على ما أُستُودِعَ ، حلَّ به ما حلَّ بغيرِه ؛ فصارَ ذليلاً بعـدَ العِزِّ ، ووَضيعاً بعدَ الرِّفعة ، محكوماً بعدَ أن كان حاكماً ، فقيراً بعدَ أن كان غنياً ؛ وأورَثَ اللهُ ما كان بِيَدِهِ غيرَهُ ، ونَزَعَ عنه لباسَ الإمارة ، وألبسَهُ من اختارَهُ لها . والى ذلك الإشارةُ بقوله تعالى : « ولَقَدْ كتَبْنا في الزَّبور[٤] من بعدِ الذِّكرِ أنَّ الأرضَ يرِثُها عِبادِيَ الصَّالحُون » . والمُرادُ بالصَّالحين في هذا المقامِ مَن كانوا صالحين لِعِمارتِهـا ، وتجويدِ أعمالِها ، وتحسين حال سُكَّانِها : بِنَشْرِ العلمِ ، وبَسْطِ لِواءِ العَدْلِ ، والاحتياطِ لِدَفعِ العَـدُوِّ ، والأخذِ بيدِ الأعمالِ النَّافعة ، كالزِّراعة والصِّناعةِ والتِّجارة . وليس المُرادُ بهم من يُطيلُونَ

---

(١) اثار : استخرج وأظهر . واصـل معنى الاثارة : التهييج والتحريك — والـكامن : المختبي .

(٢) المناهج : جمع منهج وهو الطريق الواضح

(٣) الاناظيم : جمع نظام

(٤) الزبور : الـكتاب المنزل على نبي الله داود عليه السلام . والزَّبور في اللغة : الـكتاب

الرُّكوعَ والسُّجُود ، وهُم عن اتخاذِ الأسباب لوراثة الارضِ هُجُودٌ[١] . فهذا أمرٌ رُوحيٌّ محضٌ[٢] ، تَعُودُ منفعتهُ في الآخرة على القائم به وحده . وذلك أمرٌ مادّيٌّ لا يكونُ إلاّ بالوَسائل التي هدَى اللهُ اليها ، والأسبابِ التي من رَعاها[٣] حقّ رعايتِها كان بِيَدهِ زِمامُ الامر والنَّهْي .

أيها النَّاشِئونَ ، إنّ أُمتكُم قد عَراها[٤] فسادٌ في أخلاقها ، صرَفَها عن العمل النَّافع ، وصدَفَها[٥] عن الأسباب التي تجعلُها صالحةً لِعمران الأرضِ ووِراثتِها . فحلّ فيها الشَّقاء ، ونزَلَ بها البَلاء ، وأناخت فيها اللأْواء[٦] ، واستحكمَ فيها الدّاء . وأنتُم مَوْرِدُ سعادتِها ، ومَنْهَلُ رَجائها[٧] ، ومُخَفِّفو شِدَّتِها ، وأَطِبَّاءُ أدوائِها[٨] ، فأَصلِحُوا من أمرها ، وسدِّدُوا

---

(١) هجود : نائمون . والمفرد هاجد

(٢) المحض : الخالص الذي لم يخالطه غيره

(٣) رعاها : حفظها وتعهدها

(٤) عراها : اصابها

(٥) صدفها : صرفها

(٦) أناخت : نزلت وحلت — واللأواء الشدة

(٧) المنهل : المورد

(٨) الادواء : جمع داء

خُطُواتِها[1] ، وسَيِّرُوها في مَناهِجِ العملِ الصالحِ ؛ حتى تكونَ للأرضِ وارثةً ، ولِعُمرانِها خادمةً ؛ فتعودَ إلى سيرتِها الأولى ، وترجعَ في حافِرةِ مجدِها السابقِ[2] . فقد كفاها ما نَقَصَهُ العدُوُّ من بلادِها ، وما أصابَها من ضعفِ أخلاقِها ومُمَيِّزاتِها ومُقَوِّماتِها .

أنتم أنتم ، أيها النابِتون ، نِبراسُ الأملِ[3] ، ونَجمُ الهُدَى ، وهَدَفُ العُلا[4] ، وغَرَضُ المُنى . فأحسِنُوا لأُمَّتِكم ، وأبذُلوا كلَّ هِمَّتِكم ، وأوقِدُوا نارَ عزيمتِكم ، تَكُنْ لكم أُمَّةٌ صالحةٌ ، تَحيَوْنَ بها حياةً طَيِّبةً ، وتَحيا بكم ناهضةً عظيمةً راقيةً .

---

(١) سددوا خطواتها : ارشدوها الى طريق السداد والصواب

(٢) رجع فلان في حافرته : عاد في الطريق التي جاء فيها

(٣) النبراس : المصباح

(٤) الهدف : الغرض الذي يُنصب ليرمى اليه

الحادث الاول

تَنَبَّهْ للحادث الأَوَّل ؛ فإنَّ فيه الصُّعُودَ أَو الهُبُوط ، والتَّقدُّمَ أَو التَّأَخُّر ، والموتَ أَو الحياة .

رأينا الناسَ — كثيراً منهم — لا يأْبَهُونَ [١] لأَوَّلِ طاريءٍ ولا يُبالونَهُ ؛ كأَنَّما هو أمرٌ غيرُ ذي بال [٢] . ولو عَلِموا أنَّ عواقبَ الأُمورِ تَلْحَقُ أوائلَها ، وتسيرُ سيرَتَها ، لَتنبَّهوا للحادث الأوَّل ، وبَذَلوا كلَّ جُهْدٍ لدفعه ، وتَلَقَّوْهُ كما تَتَلَقَّى الجبالُ الرَّاسياتُ طواريءَ النَّكَبات [٣] .

النَّتائجُ تَتبَعُ المُقدِّماتِ فساداً وصلاحاً ، فاذا صَلَحَت المُقدِّماتُ صَلَحَتِ النَّتائجُ ؛ وإن فَسَدَتْ فَسَدَت .

يَقُومُ بعضُ النَّاسِ بعَمَلٍ ، ويَسْعى اليه كلَّ السَّعي . وبَيْنا هو قائمٌ به ، يَطْرأُ عليه طاريءٌ حقيرٌ أو عظيم ؛ فَيجْبُنُ عن إتمامِ ما قَصَدَ اليه ، ويَتَثَبَّطُ عنه [٤] ، وتَضْعُفُ عَزيمتُهُ قبلَ بُلوغِ المراد . وما ذلك إلاَّ من فَقْدِ الصَّبرِ

---

(١) لا يأبهون : لا يلتفتون ولا يعبئون

(٢) أمر غير ذي بال : لا يُفتكر به ولا يُهتم له

(٣) الطواريء : الحوادث — والنكبات : المصائب

(٤) يتثبط : يتعوّق ويتباطأ

وجُبنِ النّفسِ . وإنّما الصّبرُ عندَ الصّدمةِ الأُولى .

ويَنهضُ غيرُهُ الى أمرٍ ، فتنتصبُ عليه الطواريءُ ، وتُحيطُ به العوائقُ ، وتَنهدُ اليه المُثبّطاتُ [1] من كلِّ جانبٍ ؛ فيتحمّلُها رابطَ الجأشِ ، ثابتَ العزيمةِ ، الى أن يَتغلّبَ عليها . ثمّ يسيرُ نحوَ ما قصدَ لهُ ، بِهمّةٍ لا تعرفُ الكَلالَ ، حتى ينالَ ما يُريد . وما ذلك إلاّ لأنّهُ صبرَ على الحادثِ الأوّلِ ؛ وتنبّهَ لِبادئِ الطّواريءِ ، ودَفعَ عنهُ هاجِسَ الجُبنِ والجزَعِ [2] ، بسببِ ما أُوتيَهُ من شجاعةِ القلبِ ، وما تَربّى عليه من الصبرِ عند أُولى الصّدَماتِ .

وما نراهُ من خيبةِ كثيرٍ ممّن يقومُ بالأعمالِ ، إنّما هو مُسبّبٌ عنالجزَعِ عند الحادثِ الأوّلِ . فتنبّهْ للحادثِ الأوّلِ .

السكوتُ عند أوّلِ فسادٍ يعرُو [3] ما تَعتنِقُهُ من العقائدِ ، داعٍ لِسرَيانِ الفسادِ الى سائرِه .

وجُبنُكَ في الدّفاعِ عن ثَغرِ حقّكَ [4] ، سببٌ لِتغلغُلِ العدُوّ في أحشائهِ .

---

(١) تنهد : تسرع وتصمد — والمثبطات : المعوّقات

(٢) الهاجس : ما يدور في الخلد ويخطر بالبال — والجزع : الاضطراب ، وهو نقيض الصبر

(٣) يعرو : يصيب

(٤) الثغر : الشق بين الجبلين ، وموضع المخافة من البلد يُخاف منه هجوم العدو ؛ واضافة الثغر الى الحق مجاز

وما وَلوعُ الإنسانِ بالشَّرِّ [١] ، وضراوتُه بالمُنكَر [٢] ، إلاّ لاستهانته بكَبحِ جِماحِ نفسِهِ [٣] الأمّارةِ عندَ أوّلِ مَيلٍ للفساد .

والغيثُ [٤] أوّلُه القَطر . ومُعظَمُ النارِ من مُستصغَرِ الشَّرَر . والنَّوى [٥] أوّلَ الشَّجَرِ

وداءُ الخُمار [٦] ، والانهماكُ في العُقار [٧] ، من الكأسِ الأولى .

وتتييمُ الغرام [٨] ، من أوّل السِّهام .

والحربَ أوّلها الكلام ، وأوسطُها الضِّرام [٩] ، وخِتامُها الحِمام [١٠] .

وإن تَجبَهْ [١١] كلَّ حادثٍ قبلَ أن يَجبَهَك ، وتدفعْ

---

(١) الولوع بفتح الواو : الولع . وكلاهما مصدر وَلِعَ يولَعُ ، بوزن وَجِلَ يوجل

(٢) الضراوة بالامر : تعوّده حتى يصير عادة

(٣) الكبح : جذب الدابة باللجام لتقف فلا تجري — والجماح : ان يركب الفرس رأسه لا يثنيه شيء ولا يردّه شيء ؛ ومثله الجموح

(٤) الغيث : المطر

(٥) النوى : بزر التمر ونحوه

(٦) الخمار — بضم الخاء : صداع الخمر واذاها

(٧) العقار — بضم العين : من اسماء الخمر

(٨) تتييم الغرام : تذليله صاحبه وتعبيده اياه

(٩) الضرام : الاشتعال

(١٠) الحمام : الموت

(١١) تجبه : تدفع وتمنع . وأصل معنى الجبه ضرب الجبهة

كلَّ طاريءٍ قبلَ أن يَعشُكَ [١] ، تأمن الغوائل [٢] ، وتعش مُطمئناً في سِربِكَ [٣] ، سعيداً في عَمَلِك ، عزيزاً بين قومك .

أيها النَّاشئون ، إنَّ من أدوائنا [٤] — التي تحولُ بيننا وبينَ ما نشتهي — الجزعَ عندَ الحادثِ الأوَّل ، وعدمَ الصَّبرِ عندَ الصَّدمة الأولى . فذلك الخُلُقُ ، ما مَلَكَ نفوسَ قومٍ إلاَّ صيَّرهم عَبيدَ العَصا [٥] ، وألبسهم رداءَ الذُّلِّ ، وجعلَ سَعيَهُم سُدًى ، وعملَهم هباءً منثوراً ، تذرُوهُ رياحُ الجُبنِ والجزع [٦] .

فتعوَّدُوا ، رعاكم اللهُ ، الصَّبر ، وتشدَّدُوا عندَ الحادثِ الأوَّل ، يَسهُلْ عليكم تلقِّي ما بعدَه ، وتكونوا في أعمالكم ناجحين .

oooooooo

(١) يعشك : يضربك ، او يطلبك . يقال : عشه اذا ضربه ؛ وعشه اذا طلبه

(٢) الغوائل : المهلكات

(٣) السرب بكسر السين : النفس

(٤) الادواء : جمع داء

(٥) عبيد العصا : اذلاء

(٦) الهباء : الغبار ، او شيء يشبه الدخان ينبث في ضوء الشمس — ومنثوراً : متفرقاً — وتذروه : تذره وتفرقه وتطيره

انتظر الساعة

نَجاحُ العمَلِ أن يَتولاَّهُ أهلُه . والإخفاقُ[1] فيه أن يُوسَّدَ الى غيرِ أهلِه[2] .

ما رأينا عملاً من الأعمال تَوفَّقَ فيه القائمون به ، إلاَّ كانوا من الصالحين له . وما شاهدنا مَصْلَحةً من المَصالح أخفقَ فيها عُمَّالُها ، إلاَّ كانوا من الطُّفَيلِيِّين عليها[3] .

إنَّ لكلِّ عَمَلٍ وُسِّدَ الى غير أهله نهايةً ، هي الخراب ، وساعةً يَنتهي إليهـا أهلُه ، هي الخيبةُ فيه . والى ذلك الإشارةُ في الحديث الصحيح : « إذا وُسِّد الأمرُ الى غير أهلِهِ فانتظِرِ السَّاعةَ » ؛ أي ساعةَ الإخفاقِ فيه وفسادِه .

ومتى فَسَدَ هذا الكون ، وتَمادَى من عليه في الفُسُوق والعصيان ، وأوسَعُوا الخُطا[4] في التَّفرُّق بعدَ الاجتماع ، والتَّخريب بعدَ العُمران ، والكُفْرِ بِسُنَنِ اللهِ[5] بعدَ الإيمان ،

---

(١) الاخفاق : الخيبة ، اي عدم النجاح . اخفق في الامر : لم ينجح فيه

(٢) يوسد : يُسند

(٣) الطفيلي : من يدخل في امر لم يُدعَ اليه ، نسبة الى طفيل : رجل من اهل الكوفة كان يأتي الولائم من غير ان يدعى اليها

(٤) الخطا : جمع خطوة

(٥) سنن الله : انظمته التي سنها لعباده

كانت ساعتُه، وقامت قيامتُه، وصدمتْه الصدماتُ، تتلوها النكبات[١]، يوم ترجفُ الراجفةُ[٢]، تتبعُها الرادفة[٣]، قلوبٌ يومئذٍ واجفةٌ[٤]، أبصارُها خاشعةٌ[٥]. وإنّما يكونُ ذلك، لأنّ اهلَه لم يبقوا صالحين له، بما أتوه من ضروب الفسوقِ[٦] عن الأنظمة التي سنّها اللهُ ليعملُوا بها، فحادُوا عنها، وسلكُوا غيرَ سبيلِها. وإنّ اللهَ يُمهلُ ولا يُهمِل. حتى إذا لم يبقَ في قوسِ الرّجاء منزعٌ[٧]، أخذَ الفاسقَ عن سنّته أخذَ عزيزٍ مقتدِرٍ، وأوردَهُ مواردَ ما كسبتْه يداهُ.

تلكَ سنّةُ اللهِ، ولن تجدَ لسنّةِ اللهِ تبديلاً.

ما من قوم عُهِدَ اليهم في أمر، فلم يُحسِنوا في سياسته، ولم يرعوهُ حقّ رعايته[٨]، إلاّ انتزعه منهم من عهدَ اليهم فيه، ووسّدهُ الى غيرهم ممّن يراهُ صالحًا له. فإن أبقاهُ في يدِ

---

(١) تتلوها : تتبعها

(٢) ترجف : تضطرب — والراجفة : المراد بها النفخة الاولى التي تكون مقدمة ليوم القيامة

(٣) الرادفة : التابعة ، والمراد بها النفخة الثانية

(٤) واجفة : مضطربة خائفة

(٥) خاشعة : ذليلة خاضعة

(٦) الفسوق عن الشيء : الخروج عنه

(٧) لم يبق في قوس الرجاء منزع : لم يبق امل ولا رجاء — والمنزع ، بكسر الميم : السهم

(٨) لم يرعوه : لم يحفظوه ولم يتعهدوه

من أسماء التّصرّف فيه ، فانتظر ساعةَ خرابه ·

التّوفيقُ في الأعمال أن تُوسّدَ الى صالح أهلها :

فإن يُعهدْ في العلم الى الجهّالُ ، عمّ الجهلُ ، وسادَ أهلُه ؛ فساء بذلك المصير ·

وإن تُسنَدِ الصّناعاتُ الى من لا يُحسِنُها ، كانت عاقبةُ ذلك الخسرانَ وفسادَ الأعمال ·

وإن أُلقيت الى الفُسّاق ، أو الجهلَةِ في الدّين ، مقاليدُ [1] الوعظِ والإرشاد ، ومُنِحوا مناصبَ التّدريس ، وأُقعدوا على منصّات الأعمال الدّينيّة [2] ، ضلّلوا الناس ، وسلكوا بهم غيرَ سبيل الهُدى · وفي ذلك ما فيه من إضعاف الدّينِ في نُفوس العامّة ، وتشويهِ محاسنه في عُيون الغريبِ عنه ·

ومتى وُسّدَت أعمالُ الدّولة الى الأغرار [3] — الذينَ لا يعرفون منها إلاّ أسماءها — أو الى الذين لا يرقُبونَ في مصالحِها إلاً [4] ولا ذِمّةً — بل يعملون ليلَ نهارَ على ما يُضعِفُ

(١) المقاليد : المفاتيح ؛ والمفرد : مقلاد

(٢) المنصات : جمع منصة — بفتح الميم وكسرها — وهي الكرسي · واصلها الكرسي تُرفع عليه العروس في جلائها لترى من بين النساء

(٣) الاغرار : جمع غرّ ، وهو من لم يجرّب الامور

(٤) الإلّ : العهد

بأسها ، ليترعوا حقائبهم[١] ، ويُشبعوا بطونهم ، وإن كان في ذلك الخراب - فانتظر الساعة ، وارتقب قيامة الدولة[٢] .

والى كلّ ذلك الإشارة في الحديث : « استعينوا على كلّ عملٍ بصالحِ أهلِه » . فإن استعنّا على الأمر بالصالح له ، كان من ورائه التوفيقُ فيه والنّجاحُ . وإن عهدنا في العمل الى غير صالحٍ له ، فقد أسلمناه الى الخراب ، وقذفنا به في لُجج الدّمار[٣] .

فأوصيكَ ، أيها النّاشئ ، أن لا تستعين في عملٍ من أعمالك ، إلاّ بمَن يكون له أهلاً . وإلاّ أخفقتَ في سعيك ، وعرتكَ الخيبةُ في أمرك .

وإيّاكَ أن تتولّى عملاً لا تصلُحُ له ؛ كيلا تكونَ من النّادمين ، ويكونَ مولّيكَ من الخاسرين ؛ يومَ تأتيك ساعةُ الشؤم ، فتذرُكَ وعملَكَ في الهاوية[٤] . فأحذر ذلك ؛ إني لك من الناصحين .

---

(١) الحقائب : جمع حقيبة ، وهي خريطة يعلقها المسافر الرحل للزاد ونحوه

(٢) ارتقب : انتظر

(٣) اللجج : جمع لجة وهي معظم الماء — والدمار : الهلاك

(٤) تذرك : تدعك وتتركك — والهاوية : الحفرة العظيمة

التجويد [١]

تَجويدُ العملِ ، مَعَ الإبطاءِ به [٢] ، خيرٌ من الإسراعِ فيه مَعَ إردائه [٣] .

ولأنْ تمشيَ كلَّ يومٍ ساعةً ، وتستريحَ سائرَ اليومِ ، حتى تَصِلَ الى المَقْصِدِ [٤] في راحةٍ ، خيرٌ من أن تَسيرَ النَّهارَ كلَّه ، حتى تَبْلُغَ ما أَنتَ تَقْصِدُ له في مشَقَّةٍ وعَناء [٥] .

وعَمَلُكَ كلَّ يومٍ ساعاتٍ معدودةً ، مَعَ إتقانِ صُنْعِك ، أولى من أن تَجْهَدَ نفسَك [٦] اليومَ كلَّهُ حتى تَمَلَّ . فإنَّ المَلَلَ داعيةُ الإساءةِ في العمل ، وسببُ الانقطاعِ عنه .

العِبادةُ شيءٌ جميلٌ تَصْبُو إليه [٧] نُفُوسُ المُؤمنين . ومَعَ هذا ، فالانقطاعُ اليها ، وتفريغُ النَّفْسِ لإقامة

---

(١) التجويد : التحسين والاتقان

(٢) الابطاء بالشيء : تأخيره

(٣) الارداء : الافساد . اردأ الشيء : افسده ؛ واردأ الرجل : فعل فعلاً رديئاً

(٤) المقصد : مكان القصد

(٥) العناء : التعب والمشقة

(٦) تجهد نفسك : تتعبها وتحملها ما لا تطيق

(٧) تصبو اليه : تميل اليه

شعائرِها[1] ، أمرٌ ذَمَّهُ الشَّرعُ ؛ لِمَا في الإِكثار منها من إردائها وإهمالِ تجويدِها ، حتى تكونَ نهايةُ الأمرِ السَّآمةَ منها . وقد وردَ في الحديثِ : « إنَّ لِربِّكَ عليكَ حقاً ، وإنَّ لِنفسِكَ عليكَ حقاً ، وإنَّ لأهلِكَ عليكَ حقاً ، فأدِّ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه » .

رأينا كثيراً من الناس يَعملون كثيراً في وقتٍ قليل ، حتى إذا آنَ وقتُ استثمارِ العمل[2] ، لم يُوافِق حسابُ الحقلِ حسابَ البيدَر[3] . وما ذلك إلاّ لأنَّ النَّاسَ لا يختارون من العمل إلاّ ما كان جيِّداً مُتقَناً . فيَبذُلون في سبيله ما يَليقُ به من الثَّمن . وإن أخذُوا الرَّديءَ ، فلا يَنفَحُونَ صاحبَه إلاّ بالنَّذرِ اليسير[4] الذي يُساويه .

ورأينا بعضَ النَّاس يَعمَلُون العملَ القليلَ في مُتَّسعٍ من الوقت ، لِيَزيدُوا في إتقانه . ومتى دنَت ساعةُ النَّتيجة[5] ،

(١) شعائرها : اعمالها . والمفرد شعيرة ، وهي كل ما جعل علماً لطاعة الله — والشعيرة ايضا : العلامة

(٢) آن : حان وقرب — واستثمار العمل : الانتفاع بثمراته

(٣) الحقل : الزرع ما دام اخضر ، والارض الطيبة المخصصة للزرع — والبيدر : الموضع الذي يُداس فيه الحب . والعبارة مثل للعامة ، يقال لما لم توافق مقدماته نتائجه

(٤) ينفحون : يعطون . نفحه بشيء : اعطاه اياه — والنذر : القليل اليسير

(٥) دنت : قربت

قَطَفُوا من أشجار صُنعِهم ثمرَاتٍ كثيرةً يانعة[١] . وما هي إلاَّ ثمرَاتُ التّحسينِ والتّجويد .

التَّجويدُ ضرُوريٌّ لحياة الأَعمال ، وضربةُ لازبٍ[٢] لِمَن أرادَ التَّوفيقَ فيها . وقد وَرَدَ في الحديث : « كَتَبَ اللهُ الإِحسانَ على كلِّ شيء » . والإِحسانُ معناه الإِتقانُ والتّجويد . فمَن أحسنَ في عمله وجوَّده فأَتقنَ تجويدَه ، جَنَى من وراء إِتقانه ما لا يَعرِفُهُ إلاَّ المُحسِنُون في أعمالهم . ومن أساءَ فيه ، كانت عاقبتُه الحِرْمانَ والنَّدَم .

وما الأَعمالُ إلاَّ كالبساتين :

فكما أنَّ البُستانَ الذي يُجوِّدُهُ البُستانيُّ ، ويَخدُمُه خِدمةً صادقة ، يُؤْتِي أُكُلَهُ جَنِياً[٣] ، فكذلك سائرُ الاعمال .

ليستِ العَجَلةُ في العمل سَبَبَ التَّوفيقِ فيه . فرُبَّ عَجَلةٍ أعقبتْ رَيْثاً[٤] ، وأورثت ندامة . وإنما التَّرَوِّي في تجويده هو الدَّاعي الى النَّجاح فيه . وقد وردَ في الحديث :

---

(١) يانعة : طيبة . ينع الثمر وأينع : ادرك وطاب وحان قطافه

(٢) هذا الامر ضربة لازب وضربة لازم ، اي : ثابت لازم لا بدَّ منه

(٣) الاكل بضم الهمزة والكاف ، ويجوز تسكين الكاف ايضاً : الثمر ، والرزق الواسع — وجنياً : غضاً طرياً . والجنى : الثمر الذي قُطف لساعته

(٤) الريث : البطء

« إن هذا الدِّين مَتين ، فأَوْغِلْ فيه بِرِفْق[1] ، ولا تُبَغِّضْ لِنَفْسِك عبادةَ الله ، فإنَّ المُنْبَتَّ[2] لا أرضاً قطعَ ، ولا ظَهْراً أبقى » .

فأحذَرُوا ، أيها النَّابتُون ، الإسراعَ في العمل من غير تجويده . فالإسراعُ — قبلَ التَّرَوِّي — داعِيةُ الخَيبة ، وسببُ الإخفاق[3] ، والتأني — معَ التَّحسين — سَبَبُ التَّوفيق . وإنَّ النَّاسَ — كما قال الفَيْلَسُوفُ — لا يَسأَلون عن سُرعة العمل ، وإنَّما يَسأَلون عن جُودته[4] .



(١) أوغل فيه : ادخل فيه . اوغل في البلاد ايغالاً : ذهب فيها وبالغ وأمعن

(٢) المنبت : المنقطع عن رفاقه في السفر ، الذي اتعب دابته فانقطعت به (راجع شرحه في عظة الاعتدال ، ص : ١٦٣)

(٣) الاخفاق : الخيبة

(٤) الجودة : — بضم الجيم وفتحها — الصلاح . وجاد الشيء يجود : صار جيداً

المرأة

من أمثال العَرَب : « كلُّ ذاتِ صِدارٍ [١] خالة » ؛ أي : إنَّ من حقِّ الرَّجل أن يغارَ على كلِّ امرأةٍ ، كما يغارُ على حُرَمهِ ؛ لأنَّ كلَّ امرأةٍ أختٌ لأمهِ في الجِنسيَّة ، فتكونُ خالةً له .

كانت حالةُ المرأةِ الاجتماعيةُ — ولم تزَلْ — على أطوار مُختلفة ، وشُكولٍ مُتباينة [٢] ، بالنِّسبة الى تَنوُّعِ الأزمنة والبِيئات [٣] . فهي بين صُعودٍ وهُبوط ، واحترامٍ واحتقارٍ ، وعِلمٍ وجهلٍ ؛ تابِعةً ترقِّيَ البِيئةِ وتَدَنِّيها [٤] ، ونُورَ الزَّمن وظُلمَته .

المرأةُ لم تُخلَق إلاّ لتكونَ والرجلَ عامِلَيْنِ في بُستان الحياةِ . بَيدَ أنَّ لِكلِّ واحدٍ منهما عَملاً خاصاً به ، لا يَحمِلُ

---

(١) الصدار : ثوب صغير يلي الجسم

(٢) الشكول : الاشباه والامثال ، والأمور المختلفة المشكلة . والمفرد شكل ، بفتح الشين — ومتباينة : مختلفة متضادة

(٣) البيئات : جمع بيئة وهي المنزل ، ويراد بها ما يُحيط بالانسان من المؤثرات

(٤) التدني : الانحطاط

به [١] أن يتعدّاه . فالرّجلُ يفلحُ أرضه ويغرسُ غرْسهُ ، ويبذرُ حبّه [٢] . والمرأةُ تتعهّدُ الحبّ والغرسَ بالسّقي ، وتنفي ما يجاورُهما من فاسد النّبات .

وما البُستانُ إلاّ البيت . وما عَملُ الرّجلِ إلاّ السّعْيُ لِمَن يحويهِ من الأهل ، وبذلُ الجُهْدِ ليَحيَوْا حياةَ السعادة . وما عَملُ المرأة إلاّ تنظيمُ المَنزِل وتربيَةُ الأطفالِ ، وبثُّ الأخلاق الفاضلة [٣] في نُفوسهم ، وتنحيَةُ الضّرائبِ الفاسدة [٤] عن موارد قُلوبهم ؛ ليتكوّنَ منهم مجموعٌ فاضلٌ ، تنهضُ به الأمة ، ويَستَدُّ به ساعدُ الوطن [٥] ، ويشتدُّ رُكنهُ .

فإن أهملَ الرجلُ ما وجب عليه ، أو جاوزت المرأةُ ما خُلقَت له ، أو قصّرَت عنه ، فسَدَ نِظامُ الأسرة [٦] ، وتثلّمَ رُكنُ الحياةِ البَيتيّة [٧] ، فكان من جرّاء ذلك [٨] الفتُّ

(١) لا يجمل به : لا يحسن به ولا يليق به ولا ينبغي له

(٢) يبذر حبه : يلقيه في الارض للزراعة

(٣) البث : النشر

(٤) التنحية : الازالة والابعاد — والضرائب : الطبائع ؛ والمفرد ضريبة

(٥) يستد : يكون سديداً قوياً

(٦) الاسرة : رهط الرجل واهله ؛ سموا بالاسرة — وهي الدرع الحصينة — لانه يتقوى بهم ؛ وجمعها أُسَر

(٧) تثلم : تشقق (٨) من جراء ذلك : من اجل ذلك

في عَضُد الأُمة والكَسْرُ في ساعد الوطن [١] . لأنَّ صلاحَ الأُمةِ ، ونُهُوضَ الوطن ، مُتوقفان على صلاح الأسر .

ولا ريبَ أنَّ سعادةَ النَّشء — وهُم عِمادُ الأُمة — أكثرُ ما تكونُ بالمرأة . فهي ، إن شاءت أفسدت أخلاقهم ؛ وإن شاءت أصلحتها ؛ لأنَّ بيدها زمامَ تربيتهم وتهذيبهم . لذلك وجبَ أن تكونَ المرأةُ مُحترَمةَ الجانب ، رفيعةَ المَنزلة ، مُتعلِّمةً ، مُتربيةً ، مُتخلِّقةً بالأخلاق الجميلة ، صالحةً لإدارة المَنزل ، عالمةً بما وجبَ عليها نحوَ العالَمِ الصَّغير — ألا وهو البيتُ —

وبعدُ ، فإنَّ جماهيرَ نساء الشَّرقِ اليوم [٢] ، وقبلَ بِضعِ مئاتٍ من السِّنين [٣] ، قد أُهمِلَت كالسَّوائم [٤] . فقد ظنَّ الرجالُ أنَّ المرأةَ آلةٌ في أيديهم ، يُديرُونها كيف شاؤوا ؛ زاعمينَ

---

(١) الفت في العضد والكسر في الساعد : كناية عن اضعاف القوة وتفريق الاعوان

(٢) الجماهير : جمع جُمهور ، وهو معظم الشيء واكثريته . وأصل معناه : الرمل الكثير المتراكم الواسع

(٣) البضع : ما بين الثلاث الى التسع . فان قلت : جاء في بضعة رجال جاز ان يكون الجاؤون ثلاثة او تسعة او ما بينهما . وهي تذكر مع المعدود المؤنث وتؤنث مع المعدود المذكر ، كما هو الشأن في العدد من الثلاثة الى التسعة

(٤) السوائم : الابل التي لا تُعلف في مكان مبيتها ، وانما تُترك ترعى مما تنبته الارض من المرعى المباح

أنها لم تُخلَق إلاّ لتكونَ أسيراً أو مَملوكة . واهتضموا مالها من الحُقوق الشرعيّةِ والطَّبيعية ، وحرَموها التعليم والتّربية . فساءت بذلك الحياةُ البَيتيّة ؛ وفسدَت الأسرةُ ، وانحطَّتِ الجماعاتُ بانحطاط الأفراد .

وقد شعَرَ الشَّرقُ اليومَ بذلك الضَّعفِ والنَّقص ؛ فنهَضَ فيه بعضُ من هداهُمُ اللهُ الصِّراطَ المُستَقيم ؛ وانصرفت هِمَمُهم الى تعليم البنات وتهذيبهنّ . لأنّهم اعتقدوا جِدَّ الاعتقادِ أنّ المرأةَ رُكنُ الحياةِ الاجتماعيّة الرّكينُ [1] ، وسَندُ نُهوضِ الأمةِ الأقوى . ولكنّ هذا التنبُّهَ ضعيفٌ ، فعَسَى أن يَقوَى بكم ، أيها النّاشئون الكرام ، فإنّ للناشئات عليكم حقوقاً عظيمة ؛ لأنهنّ خالاتكم ، والخالةُ كالأمّ ؛ أو هي الأمُّ . ومن لا يَودُّ لأمه الحياةَ السّعيدة !

إنّ ما تَروْنهُ من انحطاط الجماعات ، إن هوَ ناشيءٌ إلاّ من انحطاط المرأةِ وجهلها وفساد تربيتها . فعلّموا البناتِ ، تستَحوذُوا على الباقيات الصّالحات [2] .

---

(١) الركين : القوي

(٢) تستحوذوا : تستولوا — والباقيات الصالحات : الاعمال الصالحات التي يبقى أثرها الصالح وتعود بالثواب على فاعلها

أَلاَ إِنَّ تبذيرَ المرأة ، وإسرافها ، وحيدانها عن جادَّة[1] الاقتصادِ في اللَّبُوسِ والزينة وغيرهما[2] — حتى نَهَكَتْ ثروةَ الرجلِ[3] ، وجرَّت على الهيئة الاجتماعيَّة الوَيْلاتِ[4] — هو لأنها لم تتعلَّم العلمَ المفيد ، ولم تترَبَّ التربيةَ الصحيحة .

فعليكم ، معشرَ الناشئين ، أن تُرَبُّوا بناتِكم — متى صِرتُم أربابَ بُيوت — تربيةً فاضلة ، وتُعَلِّموهُنَّ تعليماً مفيداً ، يَنهضِ الوطنُ ، وتَشرُفِ الأُمة .

---

(١) الحيدان : الميل والعدول — والجادة : وسط الطريق ومعظمه

(٢) اللبوس بفتح اللام : كل ما يُلبس

(٣) نهكت ثروته : نقصتها او أبادتها . يقال : نُهك الضرع اذا استوفي جميع ما فيه ، ونهكت الحمى فلاناً اذا أضنته ونقصت لحمه . ونُهك ماء الاناء اذا شُرب جميع ما فيه

(٤) الويلات : المصائب ، والمفرد ويلة

اعقل وتوكل

ما رأيتُ أقلَّ عقلاً ، ولا أضعفَ مُنَّةً [١] ، مِمَّن يُقْدِمُ على الأمرِ قبلَ أن يَستعدَّ له .

بَلَى، أشدُّ منه حُمقًا ، وأكثرُ ضعفًا ، من يَخُوضُ مَيدانَ العملِ قبلَ أن يأخُذَ لهُ عُدَّتَه ؛ وهو يَعلَمُ أنّ مَنْ عَمِلَ عَمَلَهُ كانت عاقبةُ أمرِهِ الخسارَ والبَوار [٢] .

وليس أقلَّ بَلَهًا ، مَن يَتْرُكُ الأُمورَ أتكالاً على البَخْتِ وهُبُوبِ رِياحِ المَقادير ، من غير أن يَسْعَى فيما يُدْنِي له الشّاسع [٣] ، ويُسَهِّلُ له الصَّعب !

الإخفاقُ في الطَّلَب [٤] ناتجٌ عن أحد أمرين — هُما الطَّرفانِ المُفسِدانِ لكلِّ مشروع — الجُبْنِ والتَّهوُّر .

فالجُبْنُ يَصدِفُهُ عن العمل [٥] ، ويَدَعُهُ [٦] مُتَّكِئًا على عَصَا المَقادير . وإنَّ اللهَ قد جَعَلَ لِكلِّ شيءٍ سَبَبًا .

---

(١) المنة : القوة
(٢) البوار : الهلاك
(٣) يدني : يقرب — والشاسع : البعيد
(٤) الاخفاق في الامر : الخيبة فيه ، اي : عدم النجاح فيه
(٥) يصدفه : يصرفه
(٦) يدعه : يتركه

وسببُ النَّجاحِ في الأمرِ السَّعيُ إليه من أبوابه المُوصِلة .

والتَّهوُّرُ يدفعُه نحوَ غايتِه ، قبلَ التَّروّي في الأسباب المُوصِلة اليها ، واختيارِ أنجحِ الوسائل للحُصول عليها . وكثيراً ما تكونُ العاقبةُ شرًّا وَوَبالاً [١] . ومن تأمَّل في العواقب ، أمِنَ المصائب .

والسَّلامةُ من ذلك ، أن يتريَّثَ قبلَ الإقدام [٢] . فلا يَندفعُ في العمل إلاّ بعدَ أن يَعلَمَ عِلمَ اليقين — أو ما يَقرُبُ منه — أنهُ لا يَفشَلُ عنه [٣] . وليس معنى هذا أن يُحجِمَ لأوَّل صدمةٍ ، أو تُوحِّرَهُ شُبهةٌ تَعرِضُ له ، فيتخذَها حُجَّةً للإحجام [٤] . فإنَّ هذا هو الجُبنُ بعينه .

يُقدِمُ كثيرٌ من الناس على الأعمال العظيمة ؛ فلا يَلبَثُ أن يَعتَوِرَ [٥] إقدامَهُ الإخفاقُ . ولذلك أسبابٌ ؛ منها : إهمالُهُ الأُهبةَ [٦] ، وعدمُ اتخاذِ العُدَّة . وقد وَرَدَ في أمثال العَرَب :

---

(١) الوبال : سوء العاقبة ، والوخامة ، والشدة

(٢) يتريث : يتمهل

(٣) فشل عن الامر : جبن فنكل عنه ولم يمضه . والمعنى انه لم يتوفق ، لان من جبن عن امر فتركه فقد خاب فيه ولم يوفق له . وأصل معنى الفشل : الجبن والضعف وذهاب القوة

(٤) الاحجام : التأخر

(٥) يعتور : يصيب . اعتوره الامر : نزل به مرة بعد مرة

(٦) الاهبة : العدّة . جمعها أُهَبٌ

« عِنْدَ النِّطاحِ يُغلَبُ الكَبْشُ الأَجَمُّ[1] » ؛ وهو مَثَلٌ يُضرَبُ للرّجلِ يُمارِسُ الأُمورَ بغيرِ عُدَّةٍ فَيَخيب .

وكثيرٌ منهم يُهمِلُ الأمرَ اتّكالاً على أن القَدَرَ يَحفَظُه . وكان يَجِبُ عليه أن يحفَظَه ، ثم يَكِلَه الى عينِ العِنايةِ ترعاه[2] . وقد قال رجلٌ للنّبيّ (صلى الله عليه وسلم : « أُرسِلُ ناقتي وأتوكَّلُ » ، فقالَ له : « اِعقِلْها وتوكَّل[3] » .

ومن أمثالهم : « أن تَرِدَ الماءَ بِماءٍ أكيَسُ[4] » ؛ يَعنُون بذلك أن يأخُذَ الرجلُ الأمرَ بالحَزْمِ والوَثيقة . ومن ذلك قولُهم : « اِشْتَرِ لِنفسِكَ وللسُّوقِ » ؛ يُريدُون بذلك أن يأخُذَ المَرءُ الحِيطةَ لِنفسه[5] ، قبلَ الإقدامِ على العمل ، وأن يَستَشيرَ من يَثِقُ بهم لِيُرشِدُوه الى ما فيه الخير .

ومن الناس من إذا تَمكَّنَ من ناصية الأمر[6] ، عقَدَهُ

(١) الاجم الذي لا قرن له

(٢) يكله : يسلمه — وترعاه : تحفظه وتتعهده

(٣) أعقلها : اربطها . والعقل : الربط . ومنه سمي العقل المعروف ، لانه يربط الانسان أن يأتي ما يضره

(٤) اكيس : اعقل . والكيس — بفتح الكاف وسكون الياء : العقل ، والفطنة ، وحسن التأني في الأمور

(٥) الحيطة : الاحتياط

(٦) الناصية : مقدم الرأس . ويراد بالتمكن من ناصية الامر الاستيلاء عليه

بأُنشُوطة [١] . حتى إذا أفلتَ من يَدِهِ ، نَدِمَ على ذلك نَدامةَ الكُسَعِيِّ [٢] ، وهَيهاتَ [٣] أن تُفيدَهُ النَّدامة .

ألاَ إنَّ من كان كذلك ، فهو مِمَّن عَلِمُوا قليلاً وليس لهم مَعْقول [٤] . لانَّ العقلَ يَرْبأُ بالمَرء [٥] أن يَرِدَ مَوارِدَ الإهمالِ والاِتّكال . فالعاقلُ من لا يَرِدُ حتى يَعرِفَ الصَّدَرَ [٦] . فهو يُفاضِلُ بينَ الضَّرَرَين لِيرتكبَ أَخفَّهُما . فإنَّ في الشَّرِّ خياراً . وليس العاقلُ من يعرفُ الخيرَ والشَّر ، وانما هو مَنْ يَعرِفُ خيرَ الشَّرَّين . فإنَّ بعضَ الشرِّ أهونُ من بعض .

فإليك ، أيها النّاشيء ، يُساقُ الحديثُ :

اِحذَرْ أن تُباشِرَ عَمَلاً قبلَ الاستعداد له . ولا تَترُكْ عَملاً من أعمالك اتّكالاً على ما سيجيء به القَدَر . فالعاقلُ من عَقَلَ وتوَكَّل .

---

(١) الانشوطة : عقدة يسهل حلها

(٢) الكسعي : رجل يضرب به المثل في الندامة

(٣) هيهات : اسم فعل ماض بمعنى بعد ، وهي مثلثة التاء

(٤) المعقول : العقل

(٥) يربأ بالمرء : يرفعه وينهض به ويتمه

(٦) الصدر : الرجوع عن الماء بعد وروده

الاعتماد على النفس

لا شيءَ أضرُّ بالإنسان من إهماله شُئُونَ نفسِه ، معتمداً على من يقومُ له بها . هذا إن تحقَّقَ أنَّ من يعتمدُ عليه يُلبِّيه — إن دعاهُ — من غير ترَيُّثٍ[1] ولا بُطءٍ . أما إن كان نَصرُهُ إيّاهُ أمراً مشكوكاً فيه ، فاعتمادُه عليه ضربٌ من الجُنون .

جاء في أمثال العرب : « عمُّكَ خُرجُكَ[2] » ؛ يُقالُ ذلك للمتَّكِل على غيره . وذلك أنَّ رجلاً أرادَ السَّفرَ مع عمِّه ، فقال لأهله : « اتخذوا لي طعاماً ، واجعلوه في خُرجٍ ، أُصيبُ منه إذا احتجتُ اليه » ؛ فقالوا له : « عمُّكَ خُرجُكَ » ؛ أي اتَّكِل عليه في مطعمك .

المُعتمِدُ على غيره يكونُ ضعيفَ الإرادة ، بليدَ الحزْم ، خاملَ النَّفس . وما سرَى هــذا الداء في أمةٍ إلا انحل عِقدُ اجتماعِها ، وفسدَ نِظامُ عُمرانها ؛ حتى تُصبحَ في مُؤخرة الامم . فالاتِّكالُ على غير النَّفس مَدعاةُ الانقراض ؛ لأنه

(١) التريث : التمهل

(٢) الخرج : معروف ؛ وجمعه اخراج . ويجمع ايضاً على خِرَجة — بكسر الخاء وفتح الراء

يُلبِسُ الإنسانَ رِداءَ الضَّعَةِ[1] والضَّعف ، ويَصرِفُهُ عن النَّظَر فيما يَقودُهُ الى حُصون القُوَّةِ والمَنَعَة[2] .

يَنشأُ الطِّفلُ مُعتمداً — في كلّ شأنٍ من شُؤون نفسه — على أَبَوَيه ، إلى أن يَبلُغَ أَشُدَّهُ[3] . ثمَّ يدخُلُ غِمارَ الحياة[4] ، وهو لا يَعرِفُ الاتّكاءَ على عَصا نفسِهِ معنى ، لأنّه لم يَتعوَّد ذلك في نشأَتهِ الأُولى — ولِكُلِّ امرئٍ من دهره ما تعوَّدَ — فيَزيدُ بذلك الأُمَّةَ بَلاءً على بلائها ، وخِذْلاناً على خذلانها .

متى نَشَأَ الوَلَدُ فلْيُعَوِّدْهُ أبواهُ الاعتمادَ على نفسه ، في كلّ أمرٍ من أُموره ، حتى إذا شَبَّ كان رَجُلاً يَخدُمُ الأُمَّةَ خِدمةَ الرجلِ القَويِّ القادر . ومتى كَثُرَ مجموعُ الشُّبّانِ المُتَّكِئين على أعضاد أنفُسِهم[5] ، تكوَّنَت منهم أُمَّةٌ صالحةٌ لأن تكونَ وارثةَ الأرض .

---

(١) الضعة : الانحطاط والخسة

(٢) المنعة ، بفتح الميم والنون ، وقد تسكن النون : العز ، والقوة ، والمعقل يُمتنع به ، والعشيرة ، لانها تمنعه فلا يقدر عليه من يريده من الاعداء

(٣) يبلغ اشده : يشب ويتقوّى

(٤) غمار الحياة : شدائدها

(٥) الاعضاد : جمع عضد ، وهو الساعد

نحنُ في حاجة الى شبّانٍ جُبِلُوا على الاستقلال في الفكر ، والاعتمادِ على النّفس . وما تأخرنا ، إلاّ بعدَ أن ضعفَ فينا هذانِ الخُلُقان . وما ترقّى الغربيّون ، وبلغوا الغاية القُصوى[1] — من المدنيّة والعمرانِ والسُّلطان[2] — إلاّ بعدَ أن ربّوا نشأهُمْ عليها[3] .

وليس معنى ذلك أن ينشأَ الولدُ مُنفرداً برأيه ، مُستبدّاً بفكرِه ، لا يستشيرُ أهلَ العقلِ والعلم . وإنّما هو أن لا يتركَ التّفكُّرَ والعملَ ، مُعتمداً على أنَّ غيرَه يتفكّرُ أو يعمل . فإن رأى أنَّ فكرَ غيرِهِ أضمنُ لنجاحِ العملِ من فكرِه ، انقادَ لهُ ، وتمسّكَ بعُراه[4] . وإلاّ مضى فيما يُفكّرُ فيه ، وأخرجَ عملَهُ الى حيّزِ الوُجود[5] .

فتعوّدْ ، أيها النّاشيء ، الاعتمادَ على نفسِكَ ، والاستقلالَ برأيك — على نحوِ ما شرحتُ لك — تكُنْ من المُفلحين .

وأحذرْ أن تنقادَ لرأيٍ يدفعُك في الهاوية ، أو تُذعِنَ[6]

(١) القصوى : البعدى ، مؤنث الاقصى

(٢) السلطان : السلطة والقدرة

(٣) النشأ — بفتح الشين — والنشء — بسكونها : جمع ناشيء

(٤) العرى : جمع عروة ، وهي كل ما يُوثق به ويُعوّل عليه . وأصلها : مقبض الدلو والكوز ، وما يدخل فيه الزر من القميص ونحوه

(٥) الحيز : المكان والجهة

(٦) تذعن : تخضع وتطيع

لِمَن لا يَحفِزُكَ الى مَنهَجِ السَّداد (١) .

ولا تَتَّبِعْ أمرَ من يُؤَمِّنُكَ من المَخوفِ لِيُوَرِّطَكَ فيه (٢) . بل اتَّبِعْ أمرَ من يُخَوِّفُكَ عواقِبَ إساءتِكَ لِتَحذَرَها . فإنَّ من يُخَوِّفُكَ حتى تَلقَى الأمنَ أشفَقُ عليكَ مِمَّن يُؤَمِّنُكَ حتى تَلقَى الخوفَ . وقد جاءَ في أمثالِهِم : «أمرَ مُبكِياتِكَ ، لا أمرَ مُضحِكاتِكَ» ؛ أي ألزَمْ من يُبكيكَ لِيُنجِيَكَ ، لا من يُضحِكُكَ لِيُرديَكَ (٣) . ومن خالفَ في هذا الأمرِ ، وخالفَ النَّصيحَ عنه (٤) ، سَقَطَ العَشاءُ به على سِرحانٍ (٥) ؛ فكانت عاقبتُهُ الخُسران .

إنَّ هذا هو الحقُّ ؛ فلا تَكُنْ من المُمتَرِين (٦) . فاتَّبِعْ ما يُلقَى إليكَ ، يُبارِكِ اللهُ عليكَ .

---

(١) يحفزك : يدفعك — والمنهج : الطريق الواضح — والسداد : الصواب

(٢) يورّطك : يوقعك فيما لا تتخلص منه ؛ وأصلُ معناه : يوقعك في الوَرطة — بفتح الواو وسكون الراء — وهي الهوّة الغامضة ، والهلكة ، والشدة ، وكل امر شاقّ تعسر النجاة منه . يقال اورطه ايراطاً وورّطه توريطاً ، اذا اوقعه في الوَرطة

(٣) يرديك : يهلكك

(٤) خالفني عن الامر : ولى عنه وأنا اريده . وخالفني الى الامر : قصده وانا مُوَلّ عنه

(٥) السرحان : الذئب . والكلام مثل لمن ذهب في طلب امر فكانت عاقبته الهلاك

(٦) الممترين : الشاكين . امترى في الامر : شك فيه وارتاب

التربية

إنَّ هؤلاء الاطفالَ سيكونون في المستقبل رجالاً . فإذا تعوَّدُوا الأخلاقَ الصَّالحة التي تُعلِي شأنَهم ، وحصَّلوا من العلوم ما يَنفعُون به وطنَهم ، كانوا أساساً مَكيناً[1] لنهضةِ الامة . وهذا أمرٌ لا يختلفُ فيه أثنان . وإنِ أستعادوا سافلَ الأخلاق[2] ، وهجرُوا العلمَ — الذي هو سببٌ لحياة الأُمم — كانوا وَبْلاً على الأُمة ، وشرًّا على البلاد التي يَقْطُنُونها[3] .

وقد ذكرتُ لك ، أيها الناشئ فيما مَضَى من العِظات جزءًا صالحاً من الأخلاق حَسَنِها وقبيحِها ؛ وأوضحتُ لك ما يَجِبُ عليك التَّخلُّقُ به ؛ وكشفتُ عن الأخلاق الفاسدة ، التي يَنبغي لك أن تَنفِرَ منها نِفرَةَ الصَّحيحِ من الأجرَب . فأخترْ بعدَ ذلك ما تَراهُ لك نافعاً ، وما إخالك[4] مُختاراً إلاّ ما أرشدتُك الى أختياره ؛ لأنك تَعلَمُ جِدَّ العلم أني لك ناصحٌ أمينٌ .

التَّربيةُ ، أيُّها القومُ ، أمرٌ عظيمُ الخطَر[5] ، كبيرُ القيمة .

---

(١) مكيناً : قوياً — (٢) استعادوا : تعوَّدوا

(٣) يقطنونها : يسكنونها — (٤) اخالك : اظنك

(٥) الخطر : الشرف وارتفاع القدر

و« الطِّفْلُ – كما قال الإمامُ الغَزاليُّ – أمانةٌ عندَ والدَيْه . وقلبُه الطّاهرُ جوهرةٌ نفيسةٌ خاليةٌ من كلّ نَقْشٍ وصورة . فإن عوِّدَ الخيرَ وعلِّمَهُ ، نشأَ عليه ، وسعِدَ في الدُّنيا والآخرة ، وشاركَهُ في ثوابه أبواهُ وكلُّ مُعلِّمٍ ومُؤدِّب . وإن عوِّدَ الشَّرَّ وأهمِلَ ، شَقِيَ وهَلَكَ . وكان الوِزْرُ[1] في رَقَبةِ وليِّهِ والقَيِّم عليه[2] » .

التَّربيةُ : هي غَرْسُ الأخلاقِ الفاضلة في نُفُوس النَّاشئين ، وسقْيُها بماء الإرشاد والنَّصيحة ؛ حتى تُصْبِحَ مَلَكَةً من مَلَكات النَّفس[3] ؛ ثم تكونَ ثَمَراتُها الفضيلةَ ، والخيرَ ، وحُبَّ العملِ لنَفْعِ الوطن .

تَجِبُ تربيةُ الطِّفْلِ على الشَّجاعة ، والإقدام ، والجُود ، والصَّبر ، والإخلاص في العمل ، وتقديمِ المَصْلَحةِ العامَّة على المصلحة الخاصة ، وشرَفِ النَّفْس ، والجُرْأة الأدبيَّةِ[4] ، والدِّينِ الخالص من الشوائب[5] ، والمدنيَّةِ المُنَزَّهة عن الفساد ،

---

(١) الوزر : الذنب

(٢) ولي الطفل والقيم عليه : من يتعهده ويقوم بشئونه

(٣) ملكة : صفة راسخة

(٤) الجرأة : الشجاعة

(٥) الشوائب : الاخلاط ، والعيوب ، والادناس

والحُرّيةِ الصحيحة في القول والعمل ، وحُبِّ الوطن .

وعلينا أن نُرَبِّيَ فيه مَلَكةَ الإرادةِ والصِّدق ، وحبَّ إعانةِ البائسين[1] والمَشروعات النَّافعة ، وأن نُعوِّدَهُ القيامَ بالواجب ، الى غير ذلك من الأخلاقِ الشريفة ؛ وأن نُباعِدَ بينَهُ وبينَ أضدادِ هذه الأخلاق .

ولكنَّ الحالَ اليومَ عندنا على غير ما شرحناه :

فالطِّفل — وهوَ في اللّفائف — يُخوِّفُهُ أبواهُ بالغيلان و « البعابع » إرهاباً له[2] ، ليَخلُصا من صُراخه . وما يَدْرِيانِ أنَّ نَفسَ الطِّفلِ كالشّمعة اللَّيِّنة ، قابلةٌ لكلِّ نَقش ؛ أو كناقل الهَيْئَةِ « الفوتُغراف » يَنطبِعُ في زجاجته كلُّ صورة . فإذاما نشأ ، عاودَتْهُ تلك النُّقوشُ والصُّوَرُ ، التي طَبَعها في مُخيِّلَته[3] أبواهُ . حتى إذا رأى غيرَ شيء ظَنَّهُ شيئاً . فكانت حياتُهُ — بما جَنياهُ عليه — حياةَ خوفٍ وجُبنٍ وأوهام .

فإذا جاوزَ الطِّفلُ دَوْرَ الطُّفولةِ الى دَوْرٍ غيرِهِ — فكانَ

---

(١) البائسين : جمع بائس ، وهو من اشتدت حاجته

(٢) ارهاباً : تخويفاً

(٣) المخيلة : القوة التي تخيل الاشياء وتصوّرها ؛ وهي مرآة العقل

دارجاً (١) ، فحفراً (٢) ، فيافعاً (٣) — أخذا يربيانه تربية الحيوانات العجم : بالانتهار تارة ، وبالضرب المبرح (٤) تارة أخرى . ولا تسل عما يسمعه من أبويه من بذيّ الكلام (٥) ، والكذب ، والنفاق ؛ بله (٦) ما يكسبه من سيّئ الأخلاق .

وكثيراً ما تكون حياته المدرسيّة ليست خيراً من حياته البيتيّة ، خصوصاً اذا كان الأستاذ أو المربي ممن غلظت طباعهم ، وخشنت أخلاقهم ، وفسدت ضمائرهم . وإن دفع الى مدرسة كاملة ، فإنه يضيّع في بيته ما كسبه في مدرسته .

ومتى شبّ الناشئ ، كانت حياته في أمته صورة مكبّرة عن حياته في بيته ومدرسته . فإمّا أن تحيا به الأمة حياة السعادة ، إن كان قد تربّى تربية صحيحة ؛ وإما أن تحيا حياة الشقاء ، بما يجنيه عليها ، إن تربّى تربية فاسدة .

---

(١) الدارج : الصبي الذي دبّ ونما

(٢) الحفر — بالحاء المهملة : الصبي الذي سقطت رواضعه ، وهي اسنانه التي تنبت وهو في الرضاعة

(٣) اليافع : من قارب البلوغ ؛ او هو من قارب العشرين من عمره

(٤) الضرب المبرح : الذي يؤذي الجسم

(٥) بذيّ الكلام : فاحشه وقبيحه . ورجل بذيّ وبذي : فاحش . والبذاء والبذاءة والبذاوة : فحش الكلام . يقال : بذو يبذو بذاء وبذاوة فهو بذيّ ، وبذؤ يبذؤ ، وبذأ يبذأ بذاءة فهو بذيء

(٦) بله : اسم فعل امر بمعنى دع واترك

رَبي أيتها الأمة النَّابتةَ ، تَكُنْ لكِ عونًا وساعداً ، وتَنهضْ بكِ من كَبوة الذُّلِّ والخُمول[1] .

وأنتم ، أيها النَّاشئون ، تعوَّدُوا الخُلُقَ الصَّالح ، وأقدِمُوا على العلم النافع .

إنَّ مَيدانَ العمل أمامكُم ؛ فاستَعِدُّوا لِخَوضِ غِماره[2] .

اليومَ الاستِعدادُ لخدمة الامة ؛ وهناك — بعدَ انصرامِ[3] زَمنِ الصِّبا — يكونُ السِّباقُ ؛ وسنرى من يكونُ الفائزَ .

فَمَن جَدَّ اليومَ نالَ في الغَــد . ومَهما يَفعلِ النَّاشئُ في هذه السِّنِّ ، فسوفَ يُلاقيه في زَمن الشَّباب .

فما أعددْتَ ، أيها النَّابتُ ، لِغَدِك ؟ وأيَّ عَملٍ تعمَلُ الآن ، لتكون أمتُكَ سعيدةً بك في المُستقبَل ؟

— أعددْتُ هِمَّــةً ونَشاطاً ، وعِلماً وأخلاقاً ، وغَيرةً وحَميَّة ، ومَحبَّةً وطَنيَّة .

— باركَ اللهُ عليك ، وحَقَّقَ آمالنا فيك ؛ فبِكَ يَعمُرُ الوطنُ وتَحيا الأُمة .

---

(١) الكبوة : السقطة

(٢) الغمار : جمع غمر ، وهو الماء الكثير البعيد القعر

(٣) الانصرام : الانقطاع والذهاب

خاتمة العظات

السَّلامُ عليكَ ، أيها النَّاشيء ، ورحمةُ اللهِ وبركَتُهُ .

وبعدُ فإن صديقكَ — صاحبَ العظات — يُودِّعك وَداعَ مُحِبٍّ لك ، راغبٍ في نجاحك ، ويرجو منك أن لا تَنبِذَ [1] عظاته ظِهْرِياً . فإنَّ روحَ المطالعةِ أن تعمَلَ بما تقرأُ . وما ضرَّ هذا الشَّرقَ إلاَّ تركُ العمل بما يعلم .

إنَّ الأمةَ تناديك ؛ فليَكُنْ جوابُها العملَ لِمَا يُحيِيها ، والسَّعيَ في إصلاح شُئُونِها . واعلَمْ أنك لا تحيا حياةً طيِّبةً إلاَّ بحياتِها ، وقوَّةِ بأسِها [2] ، واستبحارِ عُمرانِها [3] ، وبَسطةِ سُلطانِها [4] . فاحزِمْ [5] واعمَلْ ؛ فإنَّ العملَ سعادةُ الحياة :

إذا ما شئتَ أن تحيا عزيزاً

---

(١) تنبذ : تطرح

(٢) البأس : الشدة والقوة

(٣) استبحار العمران : اتساعه وانبساطه

(٤) السلطان : القوة والسلطة والسيطرة

(٥) احزم : كن حازماً في امرك . حَزُمَ الرجل يحزُمُ حزماً — من باب ظرُفَ — كان حازماً

مَهيبَ البأسِ مَعْرُوضَ القَناةِ (١)

فلا تَرْجُ الحيـاةَ بغيرِ حَزْمٍ
يَفُلُّ السَّيفَ مَحْدُودَ الشَّباةِ (٢)

ويَتْرُكُ في صَميمِ الدَّهرِ جُرْحاً
يُحيِّرُ داؤُهُ نُطُسَ الأُساةِ (٣)

فَهَلْ من نَهْضَةٍ ، يا نَشْءُ ، تُدْني
بها تلكَ الأَماني النَّائياتِ ؟ (٤)

وهل من نَجْـدةٍ منكم ؟ فَنَسْمُو
الى أعلى النُّجُومِ الزَّاهراتِ ؟ (٥)

وهل من هِمَّـةٍ وثَباتِ جأْشٍ
نَهُدُّ به الجِبالَ الرَّاسياتِ ؟ (٦)

---

(١) مهيب : مخوف — ومعروض القناة : تحمل قناتك بالعرض — والقناة : الرمح . وعرض القناة ، اي حملها بالعرض : كناية عن العزة والامتناع

(٢) يفل السيف : يثلمه أي يُحدث فيه شقوقاً — ومحدود : مشحوذ مسنون — والشباة : حد السيف والسكين ونحوهما ، وجمعها شباً وشبوات

(٣) الصميم : العظم الذي به قِوام العضو — والنطس — بضم النون والطاء : الاطباء الحذاق ؛ وطبيب نَطس — بفتح النون وسكون الطاء وكسرها : العالم — والاساة : الاطباء ، والمفرد آسٍ ، والانثى آسية ، وجمعها آسيات وأواسٍ

(٤) تدني تقرّب — والاماني : جمع أُمنية ، وهي ما يتمناه الانسان ، ويجوز في الاماني تشديد الياء وتخفيفها — والنائيات البعيدات

(٥) النجدة : القوة ، والشدة والمعونة — والزاهرات المتلألئات بالانوار

(٦) الجأش : النفس

فَقَدْ طالَ الخُمولُ ؛ ونحنُ نَلْهو
— عن الخُلُقِ الأَبِي — بالمُخْزِياتِ ! (١)
فَكَمْ قَدْ قامَ فينا من هُداةٍ !
ولكنْ لا نُنَهْنِهُهُ بالعِظاتِ ! (٢)

فَهبُّوا ، أيها النَّاشئون ، الى المَجْد ؛ وسِيرُوا في سبيل العِزّ ؛ فإني :

أرَى المجدَ — الذي نَبْغي — عَتِيداً ،
أقامَ لِطالِبيهِ بالوَصِيد (٣)
فَهبُّوا نَحْوَهُ وَدَعُوا التَّواني
وسِيرُوا سِيرَةَ الرَّجُلِ الرَّشيد (٤)
أيُعجِبُكم بأن نبْقَى رُقُوداً
عن العَلْياء ، نَرْسُفُ في القُيُود ؟ (٥)
نَصَحْتُ لكم . وفي هذا بَلاغٌ
لقومٍ راغبينَ عن الجُمُودِ (٦)

---

(١) الابي : الممتنع مما يعيب . ويجوز تشديد يائه وتخفيفها — والمخزيات : الاعمال التي تخزي صاحبها ، اي توقعه في الخزي ، وهو الهوان والعقوبة والبعد والندامة

(٢) الهداة : جمع هاد — ولا تنهنه : لا تزجر

(٣) عتيداً مهيأ حاضراً — والوصيد : فناء الدار ، وعتبتها

(٤) دعوا : اتركوا — والتواني : التقصير والتمهل

(٥) رقوداً : نياما — ونرسف : نمشي مشية المقيد

(٦) بلاغ : كفاية

ان ما ورد من الشعر في هذه العظة هو لصاحب العظات

مضامين الكتاب